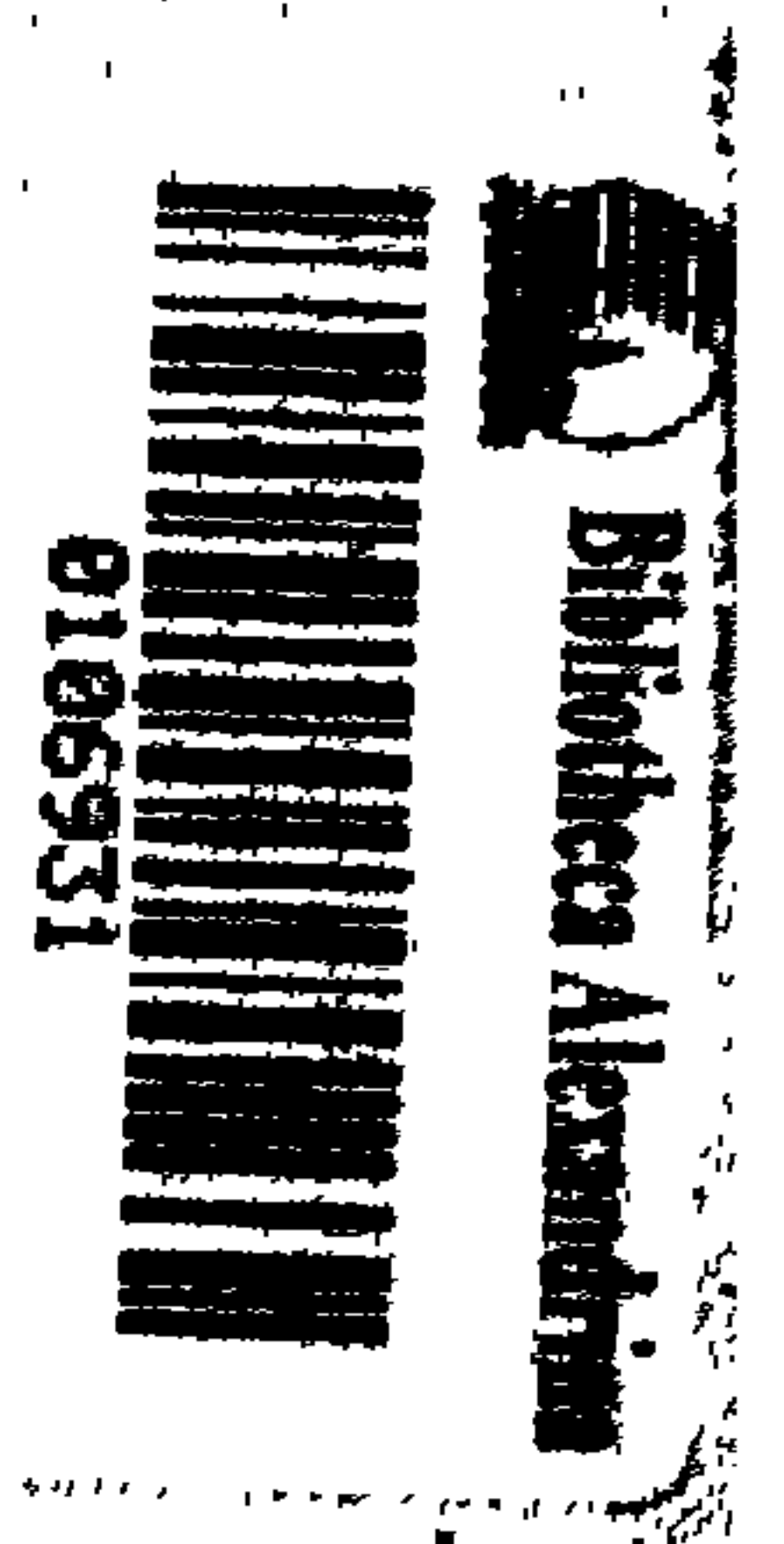


دكتور
محمد زكريا عناني
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الاسكندرية

تاريخ الأدب الأندلسي

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش. سوتية - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش. قفال السوسين - العاين - ت ٥٩٧٣١٤٦



تاريخ الأدب الأندلسي

دكتور

محمد زكريا عناني

أستاذ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية
٤٨٣-١٩٣
٣٨٧ شارع فؤاد السويدي، الإسكندرية - ت ٥٩٧٣١٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن تاريخ الأدب العربي حافل بالصفحات المشرقة ، مما يجعل منه أحد الآداب الكبرى في العالم وهو أدب ولد ناضجا أو بمعنى أدق إن أقدم ما وصل إلينا منه يحمل سمات الشخصية الأدبية الحية الأصيلة، الجديرة بأن تعيش على مر العصور ...

وينفرد الأدب الأندلسي من بين المراحل المختلفة بأنه يجمع مزايا كثيرة هي بنت اللقاء بين الشرق والغرب، ففيه الرصافة التي طالما بهرت الناس في الأدب العربي القديم ، وفيه الجدة التي تتحرك في الموشحات والأزجال و "الرومانسية" الطاغية التي تأتي عند ابن زيدون ، والظرف وخفة الروح التي تتمثل عند أبي الحكم الغزالي ، فيه - باختصار شديد - أروع ما يمكن أن يوجد في أدب أمة من الأمم ، ومن هنا لقيت كتب الأدب الأندلسي القديم كل تقدير، ومنها:

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	لابن بسام
المغرب في حلج المغرب	لعلي بن سعيد
قلائد العقيان	للفتح بن خافان
مطمع الأنفس	للفتح بن خافان
زاد المسافر	لصفوان التجيب
نفع الطيب	للمقريبي ... الخ

فضلا عن عشرات الدواوين (مثل ديوان ابن عبد ربه ، وديوان ابن دراج وديوان ابن زيدون وديوان الأعمى التطيلي ..الخ) وعديد المجموعات وكتب الأدب الأخرى .

أما في العصر الحديث فقد أرخت لهذا الأدب أعمال متنوعة منها على سبيل المثال :

نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي	لكامل كيلاني
بلغة العرب في الأندلس	ط. أحمد ضيف
الأدب الأندلسي	ط. أحمد هيكل
الأدب العربي في الأندلس	ط. عبد العزيز عتيق
تاريخ الأدب الأندلسي [جزءان]	ط. إحسان عباس
قصة الأدب في الأندلس	ط. محمد عبد المنعم خفاجي
الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه	ط. مصطفى الشكعة
عصر الدول والامارات [الأندلس]	ط. شوقي ضيف
بامع الشعر الأندلسي	ط. عمر الطحاقي الخ ...

وهناك مئات الرسائل الجامعية ، والمؤلفات التي تتناول عصرا أو ظاهرة أو جنسا أدبيا أو شخصية بعينها ، يضاف إليها ما ألف المهتمون بتاريخ الأدب الأندلسي من المستشرقين ، ومن أهم هذه الأعمال :

محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها	ل بروفانسال
الشعر الأندلسي	نيكل
الشعر الأندلسي المقطعي [الموشحات والأزجال]	س. شتون
الشعر الأندلسي	أ.ج. جومث
الشعر الأندلسي	أ.ج. كراتشكوفسكي

وتأتي هذه المحاضرات لتحاول أن تستفيد من الدراسات التي سبقتها ،
وتعالج بصورة مبتكرة، عددا من أهم الظواهر والشخصيات الأندلسية، وقد
رعى فيها أن تكون مركزة وواضحة، وأن تدعم بنماذج تمثل عيون الشعر
الأندلسي على مر العصور .

ونسأل الله عز وجل أن يلهمنا الصواب ، ويهين ما فيه الخير.

ط. للعليلة محمد رمضان

استاذ الأدب العربي .

كلية الآداب جامعة طنطا

الأندلس ، عبقرية المكان والزمان

من المسلم به أن المادة الأدبية : ينبغي أن تكون جوهر الاهتمام ومركز الرؤية، ومع ذلك فإن لكل ابداع أدبي مجاله الزماني والمكاني الذي يولد فيه، وأيا كانت الاعتبارات "الذاتية" ، فإن الأمر لا يخلو من "موضوعية"، ومن الضروري أن تتعرف على الخطوط الرئيسية للبيئة والعصر والمجتمع حتى تزداد معرفتنا بالعمل الأدبي أصالة وعمقا و "الأندلس" في المفهوم العربي الإسلامي تشمل الفترة التي تبدأ بالفتح العربي - سنة ٩٢ هـ - وتمتد حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ كما تطلق تلك التسمية على كل الأقاليم المفتوحة من شبه الجزيرة الأيبيرية ، فها نحن أمام فترة تبلغ ثمانية قرون وتمتد ، مكانيا، امتدادا شاسعا، والشئ المسلم به، علاوة على هذا، أن التفهم الصحيح ينبغي أن يلقى الضوء كذلك على ما قبل الفتح، ولا يجعل من تاريخ سقوط غرناطة في أيدي الأعداء - إلا مجرد نهاية لمرحلة سياسية ، على اعتبار أن التأثيرات العربية لم تنته بين يوم وليلة . ولن تشغلنا، في هذه المحاولة التفصيلات والتفريعات، إذ إن الفترة الزمانية والرقعة المكانية من الاتساع بمكان، وقد وقعت على أرض الأندلس في خلال ذلك، أحداث لا حصر لها، وبرزت ظواهر أدبية وثقافية وفنية بالغة الأثر ، ومن ثم فإن غاية مانصير اليه الآن أن نبرز الخطوط الكلية الموجزة، مكتفين بالإحالات على المصادر والمراجع، لمن شاء التوسع .

وربما كان من الضروري تحديد وتبسيط هذا الكم من الأسماء المتداخلة من قبيل شبه الجزيرة الأيبيرية " Peninsula Iberica " (التي تكتبها المصادر الغربية عادة Iberica) - والتي تشمل كل ما يعرف الآن باسم اسبانيا والبرتغال - ولا يعرف بالضبط منشأ هذا الجنس فهم "شعب مجهول الأصل والمصدر، عاصر في اسبانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر في اسبانيا كلها وجنوبي فرنسا فالأيبيريون على هذا

الحساب هم أقدم أمم غربى أوربا^(١) وفى بعض المراجع أن الشعبين - الأيبيرى والقلتى اختلطت انسابهما بعد فترة من الحروب الدامية وكونا معا نسلا جديد عرف باسم القلتبيرى Celtibères.

واما تسمية Espagne فإنها تنحدر من التسمية اللاتينية Hispania ولعلها تطوير عن لفظة Hespèrie التى كانت تعنى بلاد الغرب، وأما المصادر العربية فإنها لاتقدم مادة يعتد بها بالنسبة لهذه التسميات القديمة، وماكتب فى هذا الميدان يخضع لقدر من التصورات الأسطورية فمن ذلك ماياتى به المقرئ فى "نفح الطب" من أن هذه البلاد كانت أولا تحت سيطرة الأفارقة ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة، وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سُميت الأندلس اشبانيا، وكر بعضهم أن اسمه اصبهان وهو الذى بنى اشبيلية، وكان اشبانيه اسما خالصا لبلد اشبيلية الذى كان ينزله اشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس، فالعجم الان يسمونه اشبانيا لأثار اشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ولا يبقى بعد هذا إلا اسم "الأندلس" الذى اكتسب هذه الصيغة على أيدى العرب الفاتحين، ولم يكن له وجود قبلهم، وليس معنى هذا أن الاسم محض ابتكار خالص.

وقد زعم ياقوت الحموى، صاحب "معجم البلدان" أن التسمية تعود الى "أندلس بن طويان بن يافث بن نوح" وجاراه فى ذلك عدد من المصادر العربية، وهذا بدوره محض تفسير أسطورى لا يستند الى حقائق تاريخية واضحة، وأما المراجع الحديثة فإنها تتفق فيما بينها على فرضية أن الاسم مشتق من فنداليشيا Wandaliccia نسبة الى الاقاليم الجنوبية (التى كانت تعرف قبلا باسم Baetica) والتى احتلتها قبائل الفندال الجرمانية - أو الفندالوس،

(١) الأندلس، ص ٤١ (من دائرة المعارف الإسلامية)

مستغلة ضعف الدولة الرومانية - ثم كان الفتح العربى فتحولت الكلمة إلى الأندلس^(١) والأندلس - وسنستخدم هنا المفهوم العربى للكلمة - شبه قارة ترتبط بأوروبا بسلسلة جبال البرانس (البيرونيه) فى الشمال الشرقى، ومن أشهر المعالم فيها جبال سيرا نيفادا Sierra Nevada وسماها العرب: شارة، وجمعوها على شارات وفى ذلك يقول الشريف الإدريسي:

" وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما خلفه فى جهة الجنوب يسمى اشبانية وماخلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة الجبلية يعرف باسم جبل الثلج أو جبل (شليبر) ومن ثلوجه الهطالة - وهذا معنى: نيفادا - يتغذى نهر شنيل - على مقربة من غرناطة - وفى وصفه يقول أحد المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم

وشرب الحميا وهو شئ محرم

فرارا الى نار الجحيم فإنها

أخف علينا من شليبر وأرحم !

ويذا فإن الأرض فى شبه الجزيرة الأيبيرية مرتفعة نسبيا كما تتسم بالجفاف ، وتغذى البلاد سلسلة من الأنهار أهمها الوادى الكبير Guadalquivir وله روافد منها نهر شنيل، وقد لخص المقرئ - نقلا عن

(١) راجع فى ذلك مادة "الأندلس" فى دائرة المعارف الاسلامية ومراجعتها العديدة ود. الطاهر مكي، دراسات أندلسية - اللصل الأول - ود. أحمد هيكمل فى مستهل كتابه "الأدب الأندلسي"

وبلاحظ أن نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية لم يكونوا يستعملون هذه التسمية إذ كانوا يطلقون نعت اسبانيا على الأراضى التى كانت خاضعة لنفوذ العرب بينما استعملوا أسماء خاصة للدلالة على المناطق التابعة لهم مثل قشتاله Castille وأراجون Aragon واشتورش Astucias الخ ثم أصبح لفظ الأندلس Andalusia يدل على المناطق الجنوبية التى تضم غرناطة وقرطبة واشبيلية وأيضاً مالقة وجيان وقادس وولبه .

غيره - طبيعة البيئة الأندلسية بقوله ان الأندلس عند علماء أهله أندلسان: فالأندلس الشرقي منه ماصببت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة والأندلس الغربي ماصببت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد إلى ساحل المغرب فالشرقي منهما يطر بالرياح الشرقية ويصلح عليها، والغرب يطر بالرياح الغربية وبها صلاحه، وجباله هابطة إلى الغرب جبلا بعد جبل، وإنما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال أمطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الرياح الغربي كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي ومتى استحكمت الرياح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقي ومحط الغربي، وأودية هذا القسم تجرى من الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة والأودية التي تخرج من تلك الجبال تقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق وتنصب كلها إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي، وما كان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جليقية ومايلها، فإن أودينه تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف" وقد انعكست ظواهر الطبيعة هذه على الإبداع الأدبي بصورة واضحة - على ماسنرى - وهذا ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم

ولو تخيرت هذا كنت اختار

ومن ذلك أيضا تلك الأبيات التي تنسب إلى شاعرة أندلسية تدعى

حمدة بنت زياد المؤدب :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألد من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلطم جانب العقد التنظيم

ولاين خفاجة :

أن للجنة بالأندلس
مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب
ودجى ليلتها من لعس
وإذا ماهبت الريح صبا
صحت : واشوقى إلى الأندلس

وقيل فى مناقب الأندلس أنه "يشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة . وفيها من الحصون والبروج والقرى مالا يحصى كثرة، حتى قيل : إن عدد القرى على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا بالأندلس" (١)

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١ .

شئ من التاريخ :

لايكاد تاريخ الأندلس ينفصل عن تاريخ المغرب - بالمعنى العام للكلمة - ونحن نعتبر أن المغرب مايلي مصر من ناحية الغرب، وإن كانت هذه مسألة اختلف حولها المؤرخون والجغرافيون فعلى زمن العباسيين كانت مصر اقليما "مغربيا"، ووفقا لهذا الفهم تكلم عنها ابن سعيد ضمن كتابه "المغرب فى حلى المغرب" ولكن معظم المؤرخين يقسمون المغرب إلى :

أ - المغرب الأدنى : ويسمى أيضا افريقية - وعاصمته القيروان على زمن الأغالبة ثم المهديّة على زمن الفاطميين ثم تونس اعتبارا من دولة الحفصيين ، ويشمل مايعرف الآن بتونس والأطراف الشرقية من الجزائر .

ب - المغرب الأوسط : ويشمل مايعرف الآن بالجزائر واختلفت العاصمة فيه بحسب توالى الدول فيه، ففي زمن الدولة الرستمية الإباضية الخارجية كانت عاصمته تاهرت (تياريت الآن بولاية وهران) اما على زمن دولة بنى زيرى - من صنهاجة - فكانت العاصمة مدينة أشير (مكانها بنية قرب مدينة الجزائر الآن) وصارت - في زمن بنى عبه الواد - فى تلمسان ثم تحولت العاصمة إلى الجزائر - المغرب الأقصى : ولا يفصله عن المغرب الأوسط الا نهر مولويه وكثيراً ماكان يشكل مع المغرب الأوسط وحدة سياسية وكانت عاصمته اما فاس (على زمن الأدارسة) أو مراكش (على زمن المرابطين ثم الموحدين) أما فى زمن بنى مرين (ومن بعدهم بنى وطاس) فإن مدينه فاس أصبحت العاصمة مرة أخرى فلما تولى السعديون الملك جعلوا عاصمتهم مراكش أما فى العصر الحديث فإن دولة المغرب اتخذت من مدينه الرباط عاصمة لها، وهى مدينة قديمة، بنيت فى عهد الخليفة الموحدى يعقوب (المنصور).

وقد كان اتجاه المسلمين لفتح المغرب بعد فتح مصر مسألة منطقية من كافة الوجوه ، وهكذا غزا عمرو بن العاص منطقة برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ،

وفى سنة ٢٧هـ سارت حملة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى سرح، والى مصر (وشقيق سيدنا عثمان بن عفان فى الرضاة، ومعه عبدالله بن الزبير حتى وصلت إلى افريقيه وانتصرت على البيزنطيين عند موضع يسمى سبيطله ثم انتصر عبدالله بن سعد على أساطيل بيزنطة فى معركة ذات الصوارى سنة ٣٥هـ وتجددت محاولات فتح افريقية فى زمن معاوية الذى سير فى سنة ٤٥ حملة بقيادة معاوية بن حديج الكندى ثم كانت فترة الولاية الأولى لعقبة بن نافع . من سنة ٥٠ الى ٥٥) فكانت بداية لمرحلة زاهرة من الفتوح وال عمران ، إذ شيد مدينة القيروان وتولى بعده سياسى محنك هو أبو المهاجر دينار (٥٥-٦٢) الذى استطاع أن يستميل البربر الى صفوف العرب ويجعلهم يعتنقون الإسلام، ونتيجة لهذه الخطوة تمكن المسلمون من مد نفوذهم على المغرب الأوسط كله حتى تلمسان .

وقد مر فتح المغرب بين مد وجزر إلى أن تولى أمر المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ فى زمن الوليد بن عبد الملك - وفى عهده كانت أركان الدولة الاسلامية قد استقرت هناك، فقد انتشر الإسلام بين البربر وتكونت منهم فرق مقاتلة الى جانب العرب وهذا التحول الفريد الذى طرأ على بلاد المغرب كانت له آثار ايجابية فى فتح الأندلس بعد ذلك، لأن معظم قبائل البربر أخذت بعد اعتناقها الإسلام تتوق إلى الحرب والجهاد، ونفسية البربر المغربية مثل نفسية العرب قلقة دائماً، وتريد الحركة والكفاح ولاشك أن القائد العربى موسى بن نصر كان على علم تام بنفسية البربر وطبيعتهم فرأى أنهم إذا تركهم صارت الحياة الاسلامية تافهة بالنسبة لنفوسهم المتعطشة للحروب ولهذا حرصت على اتباع نزعة البرر نحو الحرب وكسب الغنائم بدفعهم الى الحرب وتوجيههم الى الفتوحات الخارجية " (١)

(١) د. أحمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٠

فتح الأندلس :

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للهيمنة الرومانية قرابة ستة قرون، إذ حكموها منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الخامس الميلادي، وأخضعوا في خلال هذه المدة الإمارات والمستعمرات المختلفة التي كانت قد استقرت فيها أو في شمال المغرب ، وبخاصة الفينقيين الذين كانوا قد استقروا بالشواطئ الساحلية جنوب وشرق الأندلس حيث أسسوا مدنا منها مالقة وقادس كما أسسوا في الساحل الافريقي عدة مراكز أهمها مدينة قرطاجنه .

وقد نشر الرومان لغتهم كما نشروا الكاثوليكية بين السكان، وغرسوا حضارتهم إبان هذه المدة الطويلة، إلا أن اركان هذه الامبراطورية الضخمة مالبت أن أخذت في التهاوى، مما مكن القبائل الشمالية الجرمانية من الانحدار من بلادهم جنوبا - حيث الدفء والرخاء - ومن هذه القبائل الوندال الذين استقروا في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك القوط Visigodes الذين تمكنوا من طرد الوندال - مما دفع بهؤلاء للعبور الى الشاطئ الافريقي، إلى أن تم التحالف، بين هذه القبائل المتناحرة، تحت زعامة ملوك القوط، وأخبرهم رودريجو Rodrigo (الذي يعرف في المصادر العربية باسم لذريق) وكانت أحوال البلاد في عهده قد ساءت الى أبعد حد وعمت الاضطرابات والفتن ، وفي عهده بدأ الفتح الإسلامي .

وعلى الرغم من أن هناك حقائق بارزة في الفتح العربي للأندلس، إلا أن المسألة لم تخل من بعض الأساطير ، من أشهرها ما تردد في بعض المصادر العبرية من أن الأمير يوليان - حاكم سبته - هو الذي أغرى العرب بفتح الأندلس انتقاما من ملكها لاعتدائه على ابنته . (فلورندا، التي تنعت في المصادر الشعبية الإسبانية بنعت قبيح، إذ تسميها La Cava، أي الفاجرة)

لكن المؤرخين المحدثين يردون الأمور الى مسارها الصحيح على اعتبار أن هذا الفتح كانت تحتمه الأوضاع السياسية والعسكرية ، فضلا عن الاعتبارات الدينية القوية .

وبعد بعض المحاولات الاستطلاعية . مثل حملة طريف سن ٩١ التي تكللت بالنجاح (جاءت الخطوة الكبرى بتلك الحملة التي قادها طارق بن زياد - ومعظم المصادر ترجح أنه ضابط بربري من قبيلة نفزة ، ومنها كذلك كان معظم الجند الذين بلغ عددهم سبعة آلاف مقاتل، وكان ذلك سنة ٩٢هـ، وتقول بعض الروايات إن طارقا بعد أن خرج من "العدوة" أحرق سفينه وخطب في جنوده خطبة بليغة قوامها أن :قاتلوا أو موتوا، ولو صح ذلك الخبر لكانت "أول نص أدبي عربي؛ قيل على أرض الأندلس، لكن الدارسين المعاصرين يرفضون كل ما قيل في هذا الصدد، ويردونه الى الخيال الشعبي الذي يسعى الى تجميل مثل هذه المواقف وإضفاء الطابع الأسطوري أو الخرافي عليها .

والنص المتداول من الخطبة يقول :

أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصون من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من زمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقى به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة - أرخص متاع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا. استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم

مأنشآت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظكم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلقونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون" (١)

والمسألة لم تقف عن هذا الحد بل تعدتها إلى الشعر فقد نسبوا له هذه الأبيات :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا
 عسى أن يكون الله مناقد اشترى
 نفوسا وأمورا وأهلا بجنة
 إذا ما اشتبهنا الشئ فيها تيسرا
 ولستا نبالى كيف سالت نفوسنا
 إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرنا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤١ (ط. احسان عباس) ولا تختلف كثيراً عما ورد فى الروايات (ترجمة موسى بن نصير) ج ٥ ص ٣٢٢ فى حين ترد فى الامامة والسياسة المنسوب لابن لثبية بصوره مغايرة مختصرة .

وليس هذا بغريب فقد نسبوا من قبل شعرا لقابيل وهابيل ولأبناء نوح ولقوم عاد وثمود ...

وبعيداً عن تفصيلات وقائع الفتوحات نكتفى بالاشارة إلى النصر الحاسم الذى أحرزته جيوش طارق بن زياد عند شذونه Sidona (قرب وادى البرباط) بجيش قوامه اثنا عشر الفا (بعد أن أمده موسى نصير بمدد قوامه خمسة آلاف جندي) فى مواجهة جيش ضخيم يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل، وبما ضاعف من أهمية هذا النصر أن لذريق نفسه قتل فى المعركة، ولم يعثر له على أثر، ولم تلبث الأندلس أن استسلمت للفتح العربى فى غضون ثلاثة أعوام .

وبما ساعد على سرعة تحقيق هذا الفتح أن موسى بن نصير خرج سنة ٩٣ بجيش عربى قوامه ثمانية عشر ألف جندي ، أستولى على مدن قرمونة واشبيلية ووشقة و لاردة ثم تقابل مع جيوش طارق بن زياد على ضفاف نهر التاجو حيث كان القائد البربرى يحاصر طليطله عاصمة القوط التى سقطت فى النهاية، وربما جاز أن نتخيل أن القائدين كان من الممكن أن يتما فتح شبه الجزيرة كلها بعد ذلك لولا أن جاءت اليهما أوامر الخليفة تأمرهما بالتوجه الى دمشق، وكان قد اتجه عدد ضئيل من الجيش القوطى - بقيادة بلايو- فى الفرار الى الجبال الشمالية الغربية ومن هناك كونوا نواة للمقاومة أو لحركة الاسترداد Reconquista وتأسست على أيديهم مملكة ليون أما القلاع التى كانت تحيط به المملكة فإنها لاتلبث ان تكون بدورها إمارة صلية عرفت باسم كاستيا Castilla وهى التى تسميها المصادر العربية بامارة قشتاله وسيكون لها شأن كبير بعد ذلك فى مجريات الاحداث وقد اصطلح الدارسون على تقسيم عصور الأندلس تاريخيه وأدبه - وفقاً لأقسام هي :

أ - مرحلة عصر الولاة :

وتبدأ من الفتح حتى استيلاء الأمير الاموي عبد الرحمن الداخل على مقاليد الامور في قرطبة (سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥ م)

وفي خلال هذه المدة كانت الاندلس مجرد ولاية تابعة للدولة الأموية بالشرق ، وقد عرفنا كيف أن موسى بن نصير وطارق بن زياد اتجها إلى دمشق بأمر من الخليفة الأموي وعين عبد العزيز بن موسى بن نصير واليا على الأندلس ، وبدأت معه مرحلة جديدة من الفتوح لكنها أجهضت بمقتله سنة ٩٧هـ، وتوالت محاولات الفتح من بعده خاصة في عهد عبد الرحمن الغافقي الذي وصلت غزواته إلى إقليم اكيثانيا - في الجنوب الغربي من فرنسا واستولى على مدينة بورجو لكن جبرشه لقيت هزيمة مياغته عند مدينتي تور وبواتيه (سنة ١١٤هـ/٧٣٢م) - وتعرف هذه المعركة في الكتب العربية باسم بلاط الشهداء .

وقد اوقفت هذه الهزيمة المد العربي، كما جاءت عوامل أخرى داخلية فزعزعت الكيان هناك ذلك أن الفتن الداخلية اشتعلت بين المسابن بسبب عوامل الفساد والاستبداد وضيق الأفق ، وقد شعر الأيبيريون الذين اعتنقوا الإسلام بالغبن لأنهم طولبوا بأداء الجزية على الرغم من إسلامهم وكذلك البربر الذين شعروا بأن العرب يتعالون عليهم ويعاملوهم معاملة الأسباد للعبيد ومن ثم اشتعلت الفتنة البربرية في المغرب والأندلس حتى إذا ماتم القضاء على هذه الفتنة ثارت القلاقل بين العرب الحجازيين (البلديين) وعرب الشام

عصر الامارة الأموية (١٣٨-٣١٦)

ويبدأ هذا العصر مع استيلاء عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور سنة ١٣٨ ويستمر حتى سنة ٣١٦.

ففي سنة ١٣٨ أي بعد فترة وجيزة من سقوط الدولة الأموية في المشرق نجح هذا الأمير الأموي في الفرار الى الغرب، ودخل الأندلس فالتف حوله أنصار بنى أمير ونجح في الاستيلاء على قرطبة ومضى يوطد أركان ملكه على مدى أكثر من ثلاثين سنة ، ومن ثم لقب بـ "صقر قریش" لأنه "عبد البحر وقطع القفر وجند الاجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وقوة شكيمته" كما قال عنه أبو جعفر المنصور بحسب ما نقل ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام .

وبغض النظر عن الكفاءة السياسية والحربية للداخل، فإن التاريخ يسجل له الاعتناء بالجوانب الحضارية فقد اهتم بتجميل قرطبة وبنى في شمالها الغربي قصرا سماه الرصافة - على غرار قصر جده هشام بن عبدالملك في بادية الشام وحدد مسجدها الجامع ، فضلا عن أنه كان أدبيا شاعرا ، على ما سنرى .

وقد توالى على عرش قرطبة عدد من الأمراء من نسل الداخل أولهم ابنه هشام الرضا (سنة ١٧٢ ثم الأمير الحكم (١٨٠) ثم عبد الرحمن الثاني (الأوسط) سنة ٢٠٦ وفي عهده بلغ الترف في قرطبة درجة عالية من الرقى ، وأصبحت تنافس بغداد في هذا المضمار خاصة بعد أن انتقل اليها زرياب الموسيقى (ولانتزال آثار موسيقاه ماثلة في ألحان أهل المغرب حتى اليوم) وكان زرياب شخصية اجتماعية ، وأحد أساطين فن الذوق والسلوك (الاتيكييت) فعلم الأندلسيين طريقة الترتيب في تقديم الأطعمة وابتكر في الأزياء والألوان، وقد نفس بعض أهل الأندلس على زرياب هذه المكانة التي احتلها ومن هؤلاء الشاعر يحيى بن الحكم الغزالي وقد مرت الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الثاني بفترة اد المرابات وتكونت دويلات كثيرة هنا وهناك وظهر عدد من الثوار أهمهم عمر ابن حفصون ولكن قبض الله للإسلام هنا اميرا بطلا هو عبد الرحمن الثالث (الناصر) والذي حكم البلاد خمسين عاما (من ٣٠٠ الي ٣٥٠) بلغت فيها درجه رفيعة من الاستقرار والرخاء وعلو الشأن في ميادين العلم والثقافة كافة.

وفى سنة ٣١٦ تسمى عبد الرحمن الناصر بالخليفة واستمر ذلك من بعده الى سقوط البيت الأموي فى الأندلس كما أنشأ مدينة الزهراء - شمال قرطبة - وقد تولى من بعده الحكم الثانى (المنتصر بالله) وكان ملكا حكيما محبا للكتب وفى عهده وفد أبو على القالى على الأندلس فكان من عوامل نشاط الحياة الثقافية فى الأندلس ، والحكم هذا آخر الملوك الأمويين الأتقيا - إذ تولى من بعده ابنه هشام الثانى (المؤيد بالله) وكان صغيرا غرا مما حدا بالحاجب أبى منصور العامرى لأن يستبد بالأمر ويتولى بحنكة إدارة سفينة الأندلس التى كانت الأخطار تحلق بها من كل جانب الى أن توفى (سنة ٣٩٢) ثم كان ماكان من أمر ابنه عبد الرحمن (شنجول) الذى طمع فى الخلافة فكان فى ذلك نهايته ونهاية البيت الأموي معا .

دول ملوك الطوائف :

تفرقت الكلمة بعد ذلك فى الأندلس وأصبح لكل مدينة أو اقليم حاكمه المستبد بالأمر فيه، ومن أبرز هؤلاء الملوك :

- بنو عباد، وحاضرتهم اشبيلية ، ودام ملكهم : سبعين سنة، وامتد نفوذهم الى قرطبة وغيرها.

- بنو جهور ، وكانت عاصمتهم قرطبة ، وحكموا ثمانية أربعين سنة، الى أن استولى بنو عباد على دولتهم

- بنو حمود وعاصمتهم مالقة

- بنو الأقطس ، وحاضرتهم بطليوس ، وحكموا : سنة

- بنو ذى النون ، وعاصمتهم البيطلة، وحكموا : سنة

- بنو عامر وحاضرتهم بلنسية، وحكموا نحو : سنة

بنو هود، وحاضرتهم قسطة، وحكموا سبعين سنة.

بنو صمادح، وعاصمتهم المرية، وحكموا نحو نصف قرن .

وهناك ، فضلا عما ذكرنا ، دويلات أخرى كثيرة مثل دولة بنى القاسم فى الفنت ، ودولة بنى رزين فى شنتمرية الشرق (أو شنتمرية ابن رزين) وإمارة سعيد بن هارون وابنه محمد على شنتمرية الغرب، وإمارة بنى مزين فى شلب، وبنى يحيى فى لبله وبنى بكر فى ولبه وبنى برزال فى قرمونة

وعلى الرغم من هذا التمزق السياسى الخطير ، الذى كان يؤذن بأسوأ العواقب إلا أن الحياة الثقافية شهدت فى ظل هذه الانقسامات انتعاشا ضخما مداه المنافسة بين هؤلاء الأمراء والتهافت على الشهرة وحب الاستماع الى مدائح الشعراء فيهم ، فهو انتعاش عارض لم يستند الى دوافع دينية او قومية أو فكرية حقيقية وقد أحسن ابن رشيق عندما قال فى وصفهم :

مما يزهدنى فى أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاضا صولة الأسد

دولة المرابطين (أو الملثمين) :

لدولة المرابطين تاريخ طويل بالغ التعقيد والغموض، إذ يبدأ فى تلك المناطق الإفريقية المجهولة الشاسعة فى الشمال الغربى من افريقية، فيما يعرف اليوم بصحراء شنقيط (بموريتانيا) ووسط قبائل البربر المعروفين باسم صنهاجة ومن اهم فروعها لتونة ومسوفة وجد اله وكان هؤلاء يتلثمون وبذلك اختلفوا عن الصنهاجيين الشماليين مثل بنى زيرى الذين حكموا المغرب الأدنى والأوسط وغرناطة فى فترة من الزمن

وقد انتشر الإسلام بينهم مبكراً، ولكنه لم يقو إلا في غضون القرن الخامس بفضل زعيمهم يحيى الجدالي والفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي، إذ توطدت على أيديهما دعائم المذهب المالكي أو استقام له مفهوم ديني سلفي متين، ومن ثم فإن اسم "المرابطين الذي أطلقوه على أنفسهم كان اسماً على مسمى. وعلى رأسهم لتونة - للشمال، أي لتلك الاصقاع التي كان يسيطر عليها آنذاك قبائل غمارة في الشمال وقبائل برغواطة في الغرب والى جوار هؤلاء كانت تقيم كذلك قبائل زنانة وبعض الرافضة ومن إليهم، ونجح المرابطون في فرض هيمنتهم هناك واتخذوا من اغمات عاصمة لهم ثم شرعوا في بناء مدينة مراكش التي سوف تصبح العاصمة بعد ذلك ويأتي التحول حين يتولى زعامة المرابطين للأمير يوسف بن تاشفين الذي تسمى بأمير المسلمين فقد برزت أهمية هذه الدولة الجديدة في مقابل ما كان عليه مسلمو الأندلس من هوان وتفكك، ثم جاءت استعانة المعتمدين عباد به ليدراً عنه خطر الفونسو السادس وفي سنة ٤٧٩ عبر يوسف بن تاشفين وجيوشه مضيق جبل طارق ليتقابل مع جيوش المعتمد بن عباد ومن آزره من ملوك الطوائف ولتكون معركة الزلاقة حيث انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ورجعت جيوش المرابطين إلى مراكش لتكون لتعود مرة أخرى على الأندلس بعد ذلك بأربعة أعوام وقد عزم ابن تاشفين هذه المرة على تخليص البلاد من حكم ملوك الطوائف وتوحيد المغرب والأندلس تحت إمرته

ولم تستمر فترة الزهو طويلاً بالنسبة للمرابطين فبعد موت يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠) تولى الملك ابنه علي، وكان حاكماً ورعاً قليل الخبرة بالسياسة وشؤون الحكم، ومن ثم بدأ الاضطراب يتسلل إلى الدولة، ووقعت حوادث شديدة الخطر لم يتنبه الي نتائجها، فمن ذلك ظهور دعوة ابن تومرت وكثرة اشباعه، وقد سكت عنه علم بن يوسف ط. بلا، ولم تحرك ساكناً إلا بعد قوات الأوان وقد خضع المرابطون لسيطرة الفقهاء، ورد ثروات الأندلس

الهائله أمراء المرابطين بالدعة وحياء الملذات والخمول ، ففقدوا مسوغات بقائهم على رأس السلطة، ولم تدم دولتهم إلا زهاء ستين سنة.

وقد تم إسقاط المرابطين، من الناحية العملية نحو سنة . ٥٤ ، ففي هذا التاريخ أعلن أهل اشبيلية مبايعتهم لتلك الدولة الجديدة التي ظهرت بالمغرب والتي تسمت باسم الدعوة الموحدية ، وهكذا انطوت صفحة تلك الدولة التي شاخت قبل الأوان بعد أن أحرزت انتصارات باهرة ونحت في إلحاق الهزيمة بالفونسو السادس واستطاعت أن تسترد بلنسية سنة ٤٩٥ من يدى السيد القمبيطور (رودريكو دياز) وأضاعتهأ أبدى الإهمال وسوء التدبير

دولة الموحدين :

ولدولة الموحدين بداية غامضة شيئا ما، ولكن خطوطها العامة معروفة على كل حال، وربما تمثلت هذه البداية بصورة أساسية فيما تسلل الى كيان المرابطين من وهن وفساد، وما كان يعجز به المغرب والأندلس من اضطرابات وفتن وتيارات فكرية واجتماعية وعسكرية وروحية متصارعة متلاطمة .

على أن التصدع الفعلى فى كيان المرابطين يظهر على نحو واضح سنة ٥١٤ هـ اذ تتردد فى مراكش أصداء دعوة محمد بن تومرت مناديا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مظهرا الغلو فى تطبيق تعاليم الدين، ناشرا دعوته بين القبائل، متلقيا بالمهدى المنتظر" و- "الامام المعصوم" واذا بالجموع تلبى نداءه ويصطنع من بينهم عددا من "الخواريين" على رأسهم عبد المؤمن بن على الذين يتولى زمام قيادة "الموحدين" على أثر وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ

وعبد المؤمن بن على بربرى من كومية - بطن من زناتة- اتسم بالعبقرية العسكرية والدهاء السياسى، واستطاع بعد معارك طاحنة أن يستولى على مراكش - حاضرة المرابطين فى المغرب - سنة ٥٤١ ، ويؤسس دولة وطيدة الأركان انتقل بها من نصر إلى نصر إلى أن توفى سنة ٥٥٨ هـ

وكان من البدهى للدولة الموحدية، بعد أن تمكنت من سحق المرابطين فى المغرب، أن تتجه إلى استئصالهم فى الأندلس، وكان أمرها موزعا بين هذه الزعامات الإسلامية وبين أطماع ملوك الفرنجة الذين أضرموا حروب الاسترداد، وساعدهم عليها مااعتري أهل الأندلس من خلل وثورات وأطماع ونزوات أدت إلى سقوط طليطلة مبكرا (سنة ٤٧٨) - على زمن ملوك الطوائف ولولا أن تدارك الله الإسلام آنذاك بالانتصار فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٨ لكان انهيار الأندلس قد وقع بأسرع مما كان .. ثم توالى سقوط المدن فاستسلمت تطيلة سنة ٥١١ هـ ثم سرقسطة سنة ٥١٢ وتمكن ألفونسو المحارب من الاستيلاء على

العديد من الحصون والمواقع المنيعه مما أدى إلى استسلام مكناسة - سنة ٥٢٧هـ - ثم طرطوشة ولاردة واقراغة من قواعد الثغر الأندلسي الأعلى ، وفي ظل هذه الحالة برزت قوة الموحدين .

وأول جيش موحدى دخل الأندلس نحو سنة . ٥٤٠هـ ، واستطاع هذا الجيش أن يخضع اشبيلية سنة ٥٤١ ، وتوالت استجابة العديد من المدن الأخرى لحركة الموحدين ، بما فى ذلك قرطبة التى اضطر أميرها المرابطى يحيى بن غانية الى التخلّى عنها للموحدين بعد أن اشتدت عليه مطالب ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وتمكن الجيش الموحدى من انتزاع مدينة المرية من أيدي الفرنجة بعد أن بقيت فى حوزتهم زهاء عشرة أعوام ، وانضوت غرناطة اخر الأمر لملك عبد المؤمن الموحدى .

أما مااستعصي عليه فيتمثل اساسا فى مرسية التى كانت خاضعة لأبى عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الملقب بـ " صاحب شرق الأندلس " (١) .

ولسنا بصدد تناول تاريخ أمراء بنى عبد المؤمن ، ولكن من الضرورى التعرّيج على اسمين هامين أولهما يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب .

أما الأول فكان فقيها حافظا متقنا ، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ، فنشئوا فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء ، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى

(١) تملك ابن مردنيش شرق الأندلس (مرسية وبلنسية) سنة ٥٤٢ هـ ، وحمل الدعوة لفكرة استقلال الأندلس عن المغرب ، ومن ثم تصدى لمحاولات الموحدين الرامية لضم شرق الأندلس : براطوريتهم ، واخذ عليه تحالفه مع القشتاليين ، وكان من مؤرّيه ابن همشك الذى تغلب على شقورة ، واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على استقلاله حتى وفاته سنة ٥٦٧ فخضعت مرسية لسيطرة الموحدين ، وسوف نعود للتعريف بابن مردنيش فى موضعه .

الأدب وبقية العلوم^(١) ، وبما يؤثر له أنه أعد العدة لجهاد الفرنجة في الأندلس عندما عبر إليها سنة ٥٦٦هـ بجيوش جرارة أفضت الي استيلائه على مرسية وماجاورها ، وكان ذلك على أثر وفاة ابن مردنيش (سنة ٥٦٧هـ).

وكان آخر ما قام به يوسف بن عبدالمؤمن أن تحرك من المغرب الي الأندلس على رأس جيش جرار ليحرر مدينة شنترين من قبضة البرتغال (وملكهم انذاك ألفونسو هينريكيث الذي تسميه الروايات العربية ابن النفق وابن الرنك) ، ولكن هذه الحملة باءت بالخسران ، وقتل الخليفة في أعقابها ، سنة ٥٥٨هـ .

وهكذا يقضى بنا القول الي الشخصية التالية أي الي أبي يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمنصور ويوصف بأنه الفارس الذي أظهر أبهة ملكهم ، ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه ، وعظمت الفتوحات " (٢)

وكان من أعظم مآثر المنصور انتصاره الساحق على نصاري اسبانيا في معركة الأرك في سنة ٥٩١ حيث تقدر بعض المصادر - مثل الكامل لابن الأثير - أن قتلهم تجاوزت مائة ألف قتيل .

وقد توفي المنصور (سنة ٥٩٥) وتولي الحكم من بعده ابنه محمد الناصر لدين الله ، وكانت فيه سمات من نخوة أبيه لكنه لم يكن مثله في الحزم وإدارة الجيوش وقد منى جيشه الضخم في سنة ٦٠٩هـ بهزيمة شعاء ، في معركة تعرف

(١) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٢-١٩

وللمزيد من التفاصيل يراجع محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين . وحدين في المغرب والأندلس ، القسم الثاني ومراجعه ..

باسم معركة العقاب - . بالكسر - وبهذه الهزيمة تقهقر الإسلام في الأندلس بصورة مروعة، وعلى الرغم من أن دولة الموحدين استمرت بعد ذلك لفترة من الزمن - حتى نحو سنة ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٩ م ، إلا أن معركة العقاب كانت بمثابة النهاية الفعلية لدولة الموحدين ، بل وللعرب والمسلمين في سائر الأندلس ، ماعدا منطقة غرناطة وما حولها في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد عبر أحد شعراء ذلك العصر - ابن الدباغ الاشبيلي - على معركة العقاب بقوله :

وقائلة أراك تطيل فكرا :

كأنك قد وقفت على الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب

غدا سببا لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام

وقد دخل البلا من كل باب (١)

مملكة غرناطة :

وتسمى أحيانا بـ "دولة بنى الأحمر" و "بالدولة النصرية" و أيضا بـ "الأندلس الصغرى" ، وتمثل آخر المعازل في اسبانيا.

وكانت الأندلس خلال فترة الانهيار الموحدى قد شهدت عدد من الشخصيات المكافحة على الرغم من كل الظروف العسيرة التى أحاطت بهم انذاك ، ومن هؤلاء الأمير الفارس أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود - من نسل بنى هود أصحاب سرقسطة - وبدأ حركته سنة ٦٢٥ فى مرسية ، مستغلا فترة

(١) نفع الطيب ٤/٤٦٤

انهيار البيت الموحدى ونادى بتخليص الأندلس من كل من النصارى والموحدين
معا وحث الدعوة للعباسيين بما دعا الخليفة العباسى الى تشييع المراسيم له،
وتلقب بـ "المتوكل على الله؛

وسرعان ما استطاع أن يبسط نفوذه على جيان وقرطبة وماردة وبطليوس،
كما انتزع غرناطة من قبضة الموحدين فى سنة ٦٢٨هـ ، وعنه يقول لسان الدن
بن الخطيب انه كان "شجاعا كريما حيباً وفياء، متوكلا عليه ، سليم الصدر ،
قليل المبالاة بالأمر ، محدودا ، لم ينصر به جيش ، ولا وفق له رأى ، لغلبة
الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه الى لقاء الأعداء من غير كمال
استعداد^(١) والحق أن عوامل كثيرة أسهمت فى زعزعة ملك ابن هود، أهمها
فورة الحماس التى سرت فى نفوس نصارى الأندلس ، ومن ثم سقطت قرطبة -
التي كانت لفترة طويلة من الزمان حاضرة الخلافة، وقد انتهت حياة ابن هود
فجأة، وهو فى ثغر المرية، سنة ٦٣٥ .

وتعرضت بلنسية بدورها للمصير التعس، عندما تحالف أميرها الموحدى
(السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن) مع ملك
أراجون خايمى الأول - بعد أن نجح أبو جميل زيان بن مردنيش فى انتزاع
المدينة منه - ولم يلبث السيد ابو زيد ان تنصر وأصبح من قواد النصارى
وأزروهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على بلنسية، ثم توالى سقوط المدائن
الكبرى: مرسية (٦٣٦) واشبيلية (٦٤٥) وغيرهما، ووضع ان النهاية الدامية
باتت على وشك ان تخيم على سائر الأندلس .

وفى هذه الآونة العاصفة استطاع أحد القادة العرب : محمد بن يوسف
الملقب بابن الأحمر، سليل بنى نصر أصحاب حصن أرجونده، من بسط هيمنته

(١) أعمال الأعلام ٢/٢٧٨، والإحاطة ٢/١٢٩

١١١ نفع الطب ج ١ ص ٢١

على عدد من المواقع والحصون الى أن استولى على غرناطة سنة ٦٣٥ وفى ظل هذه الظروف "كانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، وكان فرناندو الثالث ملك قشتاله يرى فى ابن الأحمر، بعد اختفاء ابن هود، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه. وكان ابن الاحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزيمة واقداما لمحاربة النصارى واستخلاص تراب الوطن من أيديهم^(١) ومع ذلك فإنه اضطر الى دفع الجزية لملك قشتاله وسلم له جيان وأرجونة وبركونة وغيرها، فى مقابل توقيع معاهدة سلام بينهما ثم عاد فى سنة ٦٦٥ فتنازل عن قرابة مائة موضع وحصن مما كان فى حوزته ، خاصة فى غرب البلاد ، وخلقت هذه الأحداث جراحا غائرة فى نفوس الناس، وعلى اثرها كتب أبو البقاء الرندى مرثيته المشهورة :

لكل شئ اذا ماتم نقصان

فلا يغر بطيب العيش انسان

وتوفى محمد بن الأحمر سنة ٦٧١هـ، بعد أن ابتنى قصر الحمراء ، وبعد أن استطاع دفع ملوك بنى مرين بالمغرب لأن يعينوا الأندلس، وتكونت تبعا لذلك "مشيخة الغزاة" وتبعا لذلك تمكنت مملكة غرناطة من مجالدة أعدائها فترة طويلة من الزمن ، الى أن آذنت شمسها بالغروب وكان النصارى قد وحدوا صفوفهم ، بقيادة ايسابيللا ملكة قشتاله وفرناندو الخامس ملك أراجون ، وشدوا الحصار على غرناطة إلى أن اجبروا ملكها أبا عبد الله محمداً الذى تسميه المراجع الأوربية Boabdil أو أبا عبدالله الصغير على توقيع معاهدة استسلام غرناطة، وذلك فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢م)، وبذا انطوت اخر الأعلام الإسلامية عن أرض شبه الجزيرة الأيبيرية .

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص ٤٢

مابعد الرحيل:

هناك مرحلة كثيرا ماتنسى من عمر الأندلس، وإذا ما ذكرت في كتب التاريخ فإنها عادة ماتهمل في كتب الأدب ونعنى بها المرحلة "الموريسكية"، التي تتناول فترة مابعد الأندحار، أي المرحلة التي تبدأ بسقوط غرناطة وماتلاها من أحداث جسام، وقد تناولتها - تاريخيا - بعض الكتب العربية، من بينها كتاب محمد عبدالله عنان الضخم: "نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين"، وكتاب عادل سعيد بشتاوى "الأندلسيون المواركة"، فضلا عن الترجمة العربية لكتاب: هورتز وب. بنثنت: تاريخ مسلمي الأندلس: الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية الخ... وأما الأدب فلا نكاد نجد له ذكرا إلا عند د. عبد العزيز الأهواني في: الزجل في الأندلس والذين يعرضون لأحوال المسلمين "المدجنين" Las Mudejares و (المدخاروس) لابد وأنهم يتذكرون الفتح العربي لاسبانيا وماكان يلاقيه المستعربون Los Mozarabs من حسن معاملة وجميل رعاية، وماآل إليه أمر مسلمي الأندلس من مهانة وتشريد واجبار على التنصر ونقض للمواثيق.

ويتمثل نقض المواثيق بصورة أساسية من خلال معاهدة تسليم غرناطة والتي تضمنت سبعة وسبعين شرطا منها "تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهمهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغبصوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم.. وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم.. ومن أراد الجواز للعدوة (للمغرب) لا يمنع.. وأن لا يؤخذ أحد بدينه غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الاسلام تمادى على ماأراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب..

ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود.. ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره
من أمور دينه "

لكن هذه الشروط نسخت شرطا بعد شرط وهكذا تم طرد المسلمين من
غرناطة الى ماحولها، ثم بدأت عملية إجبارهم على التنصر وتمت اباده من لم
يفعل - وكان ذلك سنة ٩٠٤ وفي ذلك يقول المقرئ: "وبالجمله فإنهم تنصروا
عن آخرهم بادية وحضرا، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك
،امتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو
واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا .. ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من
المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى
انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ؛^(١) ثم حمل الموريسكيون بعد ذلك على
مغادرة الأندلس - سنة ١١٧٠ هـ حيث نقلوا الى فاس وتلمسان وتونس وغيرها،
وكانت أحكام القتل والإحراق تصدر جزافا على الأندلسيين ذوى الأصول العربية،
وتم كذلك منع وإحراق الكتب العربية والتسنى بأسماء إسلامية الخ^(١) .
ونتيجة لذلك أخذت الكتابة العربية تختفى شيئا فشيئا وإن بقيت آثار منها
تعكس اللوعة والإحساس الدامى بالقهر والضياع .

(١) نفع الطيب ج ٤ ص ٥٢٨

(١) راجع : تاريخ مسلمى الأندلس (الموريسكيون) ص ١٢٥ حيث يشير الى ما اكتشف
من كتب اسلامية مخبوءة في ثقب الجدران في بعض المدن الاسبانية

ملاحظات حول الثقافة والمجتمع

كان التركيب السكاني في الأندلس خليطاً من أجناس شتى وحضارات متباينة شرقية وغربية، بحيث يمكن القول بأن الأندلس تمثل "حالة خاصة" في تاريخ البشرية .

فهناك السكان الأصليون الذين ينحدرون بدورهم من أصول مختلفة بعضها محلي قديم، وبعض آخر جاء إليها من روما أو من فينيقيا، وأيضاً من أقصى شمال المعمورة (مثل الوندال والقوط) ، على أن هؤلاء السكان يمكن أن يصنفوا بعد الفتح العربي إلى عدة فئات :

- المستعربة (Los Mozarabes) ، وهم الذين بقوا على ديانتهم الأصلية (النصرانية وفقاً للمذهب الكاثوليكي) ولكنهم اتصلوا بالثقافة العربية وحاولوا التجانس مع الحياة الجديدة التي أحاطت بهم، والكتب العربية تسميهم عادة : عجم الأندلس أو عجم الذمة، وقد ذكرهم ابن حوقل - الذي جاء وأفدا على الأندلس في زمن الخليفة الناصر - في عبارته: "وبالأندلس غير ضيعة فيها ألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ، ولجأ بعضهم إلى حصن فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد"

- المولدون ، وهم نسل المسالمة ، وقد وصف ليفي بروفنسال هؤلاء المسلمين الجدد بقوله انهم زاولوا في القرى تربية المواشى والزراعة، وفي السواحل الصيد والصناعات البحرية بينما كانوا في المدن يقومون هم والموالي بالحرف والتجارة، وهذا كله يبين الدور القوي الذي قام به المولدون في حين ان الاقتصاد العام للبلاد، وهم يشكلون القسم الأكبر من سكان الأندلس . وقد برهن الأمويون على أفضل سياسة وأحكامها عندما ساعدوهم على الارتقاء وسمحوا

لكثير منهم بالاغتناء وبالتغلغل فى المجتمع الإسلامى. وكانت سياسة اللين لا سياسة القهر هى المتبعة فى نشر الإسلام، ومالبثت هذه السياسة أن اثمرت وأمدت النظام الأموى بجماعة كبيرة من ذوى القيم العليا الذين استطاعوا باستقامتهم - غير مرة - أن يفضوا الخلافات السياسية التى كانت تنشب بين العناصر المهاجرة من عرب وبرايرة ..^(١) وبقيت أسر من هؤلاء المولدين محافظة على أسمائها القديمة مثل بنى مرتين Martin وبنى مردنيش Martinez وبنى قومس Comes وبنى شبريق Savarico وبنى القبطرنة Kabturno وبنى اللونقة Longo وبنى قرلمان Karluman الخ .

- اليهود ، وكانوا على زمن القوط أقلية مضطهدة (ومن ثم أزرروا الفتح الإسلامى للأندلس) ، واعتادوا أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم، واستطاع بعضهم - مثل ابن النغرلة- أن يحتل مناصب رفيعة فى الدولة . وكان منهم شعراء وكتاب بالعربية .

- أهل البلاد المعادون للعرب

ونقصد بهم سكان البلاد التى لم يفتحها العرب حيث تكونت الإمارات التى قادت حركة "الاسترداد" - Reconquista - حتى تمكنوا فى النهاية من طرد المسلمين من سائر الأندلس

- العرب الفاتحون ومواليهم ، وقد أشرنا اليهم فى ايجاز عند الحديث عن الفتح عبر المرحلة الأموية من تاريخ الأندلس

ويمكن القول فى يسر إن المرحلة "العربية" كانت متأثرة الى حد بعيد بالطابع الشامى فى كل شئ ، وربما ساعد على ذلك أن قرطبة نفسها كانت تشبه

(١) بروفنسال: تاريخ اسبانيا الإسبانية (بالفرنسية) ، نقلا عن د. ألبير جيب مطلق: الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٢٨

مدينة دمشق من عدة وجوه إذ كانت تقع على الشاطئ الأيسر من نهر الوادي الكبير كما كانت حاضرة الأمويين تقع على الضفة اليسرى من نهر بردى، وكانت حاضرة الأندلس يحف بها جبل العروس بينما يحف بدمشق جبل مشابه هو قاسيون، وقد عرفنا أن جامع قرطبة شيد على نحو يشبه المسجد الأموي بدمشق "أما الناحية الدينية في الأندلس في هذه الفترة فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون في بادئ الأمر مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي امام الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ ، ومقامه يزداد في بيروت، وكان الأوزاعي من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت التي كانت في ذلك الوقت رباطا على العدو البيزنطي لذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم ، القائمة على الحرب والغزو".^(١)

ومن الطبيعي أن ذلك كله سينعكس بدوره على طبيعة الأدب والثقافة في الأندلس آنذاك

ويحتاج حزب "المولدين" الى وقفة خاصة ، لأنهم احتلوا في تاريخ الأندلس مكانة متميزة، وقد كان لهم نمطهم الخاص في كل شئ ، فقد اعتاد معظم ارتداء الثياب البيض حزنا على الموتى، وفي ذلك يقول شاعرهم

ألا يا أهل أندلس فظنتم

بلطفكم الى أمر عجيب

لبستم في ماتمكم بياضا

فجنتم منه في زى غريب

صدقتم فالبياض لباس حزن

ولا حزن أشد من المشيب

(١) د. العبادي ، السابق ص ١١٤ .

وكان من عاداتهم فى الثياب ارتداء البرنس وهو عباءة ذات غطاء للرأس وتسمى أيضا بالغفارة ، بينما كان الخصيان يرتدون الخمار ، وتدل بعض الإشارات على أن الصقالبة - بما فى ذلك الأمراء منهم - كانوا يرتدون الأقراط ويضعون الخمار، وفى ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح واحد منهم :

فتصبح فيما بين قرطيك مطلع

وقد سكن الليل البهيم خماركا

وقد تخلى الأندلسيون عن العمامة فى الغالب الأعم، وإن ظل العلماء والقضاة يحرصون عليها وفى ذلك يقول المقرئ فضلا عن ابن سعيد: "وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام، لاسيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا قاضيها مشارا اليه إلا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية ، حضرة السلطان فى ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة، وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره ، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه فى شرق منها أو فى غرب .. وكثيرا ما يتزى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم .." (١)

والظاهرة العامة أن البربر، على الأقل فى الأندلس ، لم يحظوا بالقدر الكافى من التقدير، واعتبروا ، أكثر من غيرهم، بمثابة الدخلاء على البلاد، وحقيقة اننا قد نصادف بعض أقوال فى مدحهم ، مثل البيت المعروف فى تعليل تمسكهم باللثام:

لما حروا إحراز كل فضيلة

غلب الحياء عليهم فتلثموا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٣ (ط. احسان عباس)

لكننا ، فى مقابل ذلك ، نجد مثل قول الشاعر السميسر:

رأيت آدم فى نومى فقلت له

أبا البرية، إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال : إذن

حواء طالقة ان كان مازعموا

والحكاية المشهورة تقول إن المعتمد بن عباد بعث ليوسف بن تاشفين على أثر عودته لبلاده بعد الانتصار فى معركة الزلاقة برسالة ضمنها قول ابن زيدون:

بنتم وينا فما ابتلت جوانحنا

شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فعدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

والخبر يقول ان ابن تاشفين قال لقارئ الرسالة معلقا على
البيتين :

"يطلب منا جوارى سودا وبيضا؟ قال : لا يامولانا. ما أراد إلا أن ليله
كان يقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليلى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا
لأن أيام الحزن ليال سود. فقال: والله جيد اكتب له : إن دموعنا تجرى عليه،
ورؤوسنا ترجعنا من بعده " ! ولا شك ان هذا محض لعمد كمال ابن تاشفين
حصيفا داهية، وهو الذى استشهد فى الرد على تهديد النورسو السادس بقول
المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل الا والخميس .

بل لقد تمكن الصقالبة من التأثير فى مجريات الأحداث، وهؤلاء الصقالبة (وبعض المؤرخين مثل دوزى يرجع التسمية إلى كلمة Slaves) كانوا من الرقيق المشتري من المناطق السلافية وكانت القبائل الجرمانية تغير على بلادهم وتبيعهم فى أسواق الرقيق، واشترى أمويو الأندلس أعدادا كبيرة منهم ودربوهم على فنون القتال (على نحو ما فعل الصالح أيوب فى مصر فى اقتنائه للماليك)

وبعد انهيار البيت الأموى ظهر من الصقالبة بعض الزعماء البارزين مثل أبى الجيش مجاهد العامرى الصقلى الذى شيد امارة فى دانية والجزر الشرقية

وهذا التركيب المتنوع المعقد سوف يخلف آثارا عميقة فى الأوضاع الاجتماعية فى نظام الحكم، إذ يلاحظ أن مفهوم "السيادة القرشية" لا يلبث أن يتزعزع بعد سقوط البيت الأموى ويصبح الملك أمرا مشاعا لا يخضع الا للغلبة أو الانتخاب ، وهذا ما آلت اليه الحال فى قرطبة سنة ٤٢٢ عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور " انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها" وأديرت قرطبة وفقا لنظام "جمهورى" واستطاع المولدون والبربر والصقالبة أن تكون لهم الكلمة النافذة فى بعض المناطق ، على نحو ما هو مبسوط فى كتب التاريخ .

وهناك وجهتا نظر بشأن طبيعة هؤلاء السكان، فبعض الدارسين وبخاصة العرب يؤمن بأنه يجب اعتبار سكان الأندلس عربا، على اعتبار أن العروية كانت العنصر المهيمن الغالب الذى احتوى كافة الأجناس الأخرى التى ارتبطت به، وهكذا كان الإسلام - دين العرب - هو الأساس ، ولغتهم هلى السائدة وطبائعهم هى المسيطرة .

أما المستشرقون الإسبان، وعلى رأسهم خوليان ريبيرا، فيرون أن أهل الأندلس هم اسبان دينهم الإسلام ولغتهم العربية، على أساس أن العرب قدموا

إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فرسانا ولم يكن معهم أسر ومن ثم فإنهم تزايدوا عن طريق الزواج بالأيبيريات وبذا فإن الدم الأيبيري كان يزيد جيلا بعد جيل بينما يتناقص الدم العربي مرة بعد أخرى .

ولعل الاستقرار الصحيح لواقع المجتمع الأندلسي يقود الى استخلاص رأى يجمع بين وجهتى النظر، فيبرز اثر العنصر العرب دون أن يقلل من أهمية الاجناس الأخرى، والأدلة التى تدفع للأخذ بهذا الرأى كثيرة للغاية

فلا شك أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة فضلا عن أنها كانت لغة الإبداع الأدبى - شعرا ونثرا - وامتد نفوذها الى المستعمرين أنفسهم ولعل أوضح دليل على ذلك شكوى أحد كبار رجال الدين النصارى (الفارو القرطبنى) الذى ترك وثيقة يقول فيها :

"إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون عي دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوب عربيا جميلا صحيحا. ان الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب .

لقد نسى النصارى حتى لعنتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب الى صاحبه كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا "

على أن هذه الشكوى لاينبغى أن تستأثر بكل الانتباه ففى مقابلها ينبغى أن نلتفت الى ظاهرة انتشار اللاتينية المحلية (التي تعرف بالرومانث) حتى بين العرب أنفسهم وهاهو المقدسى صاحب !أحسن التقاسيم فى معرفة

الأقاليم" يذكر أن عددا من أهل الأندلس كان يتكلم فى موسم الحج بلهجة تستعصى على الفهم ولغة أخرى أعجمية. وابن حزم فى "جمهرة أنساب العرب" يقول إن جماعة من العرب، هم بنى بلى، كانوا "لا يحسنون الكلام بالطينية، لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم" وفى هذا التخصيص مايدل على انتشار الرومانث بين سائر عرب الأندلس وخلف هذا التداخل بين الأجناس من عرب واسبان وبربر وصقالته أثره فى اللغة المتكلمة حتى إن ابن حزم يقول إن لهجة أهل فحص البلوط - على مقربة من قرطبة - تستعصى على الفهم فمن سمعها "كاد يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله"

وفى التاريخ الأندلس أن ابن حفصون - وهو من الثوار المولدين - كان يمزج كلامه بالألفاظ من الرومانث وكذلك كان يفعل ابن مردنيش أحد كبار ملوك شرقى الأندلس

وستأتى فى الموشحات والأزجال طائفة كبيرة من الألفاظ والجمل الرومانثية التى جرت على السنة الشعراء هناك

وقد استخلصت بعض الظواهر المكونة للشخصية الأندلسية التى نوجزها فى النقاط التالية :

القلق وعدم الاستقرار :

ان التاريخ الأندلس كله تاريخ مواقف متتابعة من القلاقل والاضطرابات ومحاولات الانفصال، وتعليهم لهذه الظاهرة التباين الواضح بين الاجناس التى تركيب منها المجتمع الأندلسى، ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف شخصية قد عانت نوعا من القلق جعلها

تسعى الى ما يشعر بالزمن أو إلى ما يسكن على الاقل بعض هذا القلق، وربما كانت من أسباب مانع من ميل الأندلسيين إلى الوان من المتعة وصنوف من اللهو كالشراب والغناء والرقص الموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كلف به الأندلسيون؛

الاحساس بالنقص بإزاء المشرق :

لقد حبا الله الأندلس بطبيعة لاتضاهى ، وبثروات لا تبارى، وتميز أهلوه بالذكاء والنظافة والظرف والاقبال على الحياة، ومع ذلك فإن الناظر في أحوالهم يلاحظ في يسر أنهم كانوا يحسون إحساسا عميقا بالنقص بإزاء المشرق على الرغم من كثرة ما ألفوا من كتب ورسائل في المباهاة ببلادهم (بل ان هذه المباهاة في حد ذاتها يمكن أن تفسر علي انها ثمرة احساس داخلي بالنقص)^(١) وقد كانوا يتظاهرون بالحرص على النواحي التقليدية ولكن هواهم كان على الدوام مع الجديد ، والميل الى التحرر من التقاليد . واليكم هذه الأبيات لابن حزم، وفيها ما يكشف عن بعض جوانب النفسية الأندلسية :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عيبي أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

(١) من ذلك رسالة ابن حزم ف فضائل أهل الأندلس ورسالة الشقندى (وتأتیان فى نفع الطيب) وهناك أيضا رسالة لصفوان صاحب زاد المسافر

فكم قائل أغفلته وهو حاضر
وأطلب ما عنه تجيب: به الكتب
هنالك يدري أن للبعد غصة
وأن كساد العلم آفته الغرب
فواعجبا ، من غاب عنهم تشوفوا
له ودنو المرء من دارهم ذنب

ومن البديهي ان يعول أهل الأندلس كثيرا على المشرق، على نحو
ما تكشف عنه بصورة خاصة كتب الفهارس - مثل "فهرست مارواه عن شيوخه
من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خير الاشبيلي
وكتب البرامج ، مثل برنامج الوادي أشي الخ

وعدنا فهرست ابن خير بمادة غزيرة عن كتب اللغة والنحو مما شاع في
عصره - القرن السادس الهجري - فمن ذلك^(١) كتاب سيويه والعين للخليل بن
أحمد. و"المقتضب" لأبي العباس المبرد و "الأصول في النحو" لأبي بكر بن السراج
و"الجمال" للزجاجي و "الكافي" والمقنع " هما لأبي جعفر بن النحاس .

ومن الكتب المشرقية التي انتشرت بين الأندلسيين : البيان والتبيين
للجاحظ ، والفصوص لصاعد البغدادي (الذي هاجر للأندلس وأهدى كتابه هذا
للمنصور العامري) وكتاب المجالس لثعلب (وانظر لابن عبدالبر: بهجة المجالس
وانس المجالس) وأدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الأمثال للأصمعي (ولابن
القوطية: شرح صدر أدب الكتاب) وشرح المعلقات لأبي جعفر بن النحاس وكتابا
اليتيمة وأجناس التجنيس للثعالبي (بإجازة من المحافظ السلفي)^(٢)، وكذلك

(١) فهرست ابن خير، ص ٣٠٥ وما بعدها

(٢) فهرست ابن خير ص ٣٧٠

"أشعار هذيل" برواية الأصمعي ومجموعة "المفضليات" : وشعر ذي الرمة وشعر
أعشى بكر وشعر الحطيئة وكتاب الكامل للمبرد الخ .

وأما أبو عمرو القالى فإنه خلف آثارا عميقة فى الحياة الأدبية هناك من
خلال دروسه بقرطبة، ومن خلال مؤلفاته مثل النوادر والأمالى التى أولع بها
أهل الأندلس (ولأبى عبيد البكرى: كتاب اللآلى فى شرح الأمالى)، وأيضا من
خلال ما حمل لهم من مؤلفات أدبية مشرقية ذكرها ابن خير فى فهرسه ، ومنها:

شعر ذى الرمة

شعر الخنساء

شعر الحطيئة

شعر جميل

شعر معن بن أوس

المفضليات

شعر النايفة الذهبىانى

نقائض جرير والفرزدق

شعر مالك بن الربيع

شعر النايفة الجعدى

شعر عدى بن زيد

شعر عمر بن أبى ربيعة

شعر أبى نواس

جزء من شعر أبى تمام

وفى فهرست ابن خير أيضا حديث مستفيض عن ابن الأندلس رأى

تمام وبالمتنبى.

أما أبو تمام فإن شعره ذاع هناك عن طريق عدة روايات منها رواية الرحالة

البغدادى أبى اليسر ابراهيم بن أحمد الرياضى وهو الذى نشر فى افريقية والأندلس شعر المحدثين وأخبارهم^(١) كما يذكرون فى هذا الصدد اسم عثمان بن المثنى، أحد مؤدى قرطبة (ت سنة ٢٧٣) وفى شأنه يقول الزبيدى فى طبقاته: إنه "رحل الى المشرق فلقى حبيب بن أوس ، فقرأ عليه شعره، وأدخله الأندلس"، وأيضاً اسم الأديب الشاعر مؤمن بن سعيد الذى تقابل مع أبى تمام فى بغداد .

كما ذاع ديوان الحماسة بين أهل الأندلس واعتنوا بشرحها ومن شراحها ابن سيده وعاصم بن أيوب البطليوسى وأبو عامر بن ينق الشاطبى وأبو اسحاق بن ملكون صاحب "إيضاح المنهج" وفيه جمع بين كتابى التنبيه والمبهبج لابن جنى فى شرح الحماسة^(٢)

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الأندلسيين كانوا عالة على المشاركة فى اللغة والأدب ، فقد كانت لهم جهود ذات شأن فى كل ميدان، ومما ألفوه فى النحو والغة : الاستدراك على سيبويه وطبقات النحويين واللغويين ولحن العوام للزبيدى، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل لابن السيد البطليوسى (صاحب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، وكتاب الانتصار ممن عدل عن الاستبطار والحل فى شرح أبيات الجمل والرد على النحاة لابن مضاء القرطبى والمخصص لابن سيده الخ .

ومن مؤلفاتهم فى الأدب ، غير ما ذكرنا، كتاب العقد لابن عبد ربه واحكام صنعة الكلام للكلاعى وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى ، وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى والحلة السيراء

(١) فهرست ابن خير ص ٤٠٢، وقرأ دراسة شيقة للدكتور محمد بن شريفة بعنوان : أبو تمام وأبو الطيب فى أدب المغاربة ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) منه مخطوطة فى الاسكوريال (رقم ٣١٢) وأنظر عنها د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

لابن الأبار وقلائد العقيان ومطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الأندلس
للفتح بن خاقان والدحيرة فى محاسن أهل الجزيرة لعل بن بسام الشنترنى -
ويعد أهم مؤلفاتهم ذى تاريخ الأدب ولعبادة بن ماء السماء الشاعر الوشاح -
وهو من تلاميذ الزبيدى - كتاب (ضائع) فى أخبار شعراء الأندلس والأعلم
الشنتمرى (ت ٤٧٦) أشهر من عكف على جمع وشرح المجاميع والدواوين
الشعرية مثل شعراء الستة الجاهلين وكتاب الحماسة ودواوين زهير وعلقمة الفحل
والنابغة ، وقدم أبو بكر عاصم بن أيوب البلوى شرحا على الحماسة وأشعار
الستة الجاهلين ، كما ألفوا بدورهم مجموعات على غرار حماسة أبي تمام منها
حماسة الأعلم الشنتمرى التى ضمنها حماسة أبي تمام والحماسة البصرية وحماسة
المرجاني وغيرها ورتب أشعارها وأبوابها وشرحها شرحا مفيدا^(١) الخ وقد
ضاعت آثار كثيرة بسبب العوامل التاريخية التى ذكرناها، ولا تزال أعمال
أندلسية جليلة القدر مخبوءة عن القراء، متوارية فى خزائن المخطوطات العامة
والخاصة ، وهناك - بما هو مطبوع - غير ما ذكرنا:

- البديع فى وصف الربيع ، لأبى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى
نشره هنرى بريس بالمغرب سنة ١٩٤٠ ، وأعيد نشره مؤخرا ، وموضوعه واضح
من عنوانه، وكل مادته - ما خلا مقطعات لابن الرومى - أندلسية خالصة

- زاد المسافر وغرة محيا الأدب الدائر فى بحر صفوان بن ادريس
التجيبى المرسى ، وكان عبد القادر سحداد قد نشره فى بيروت ١٩٣٩ ثم أعيد
نشره فيها سنة ١٩٧٠ ، وهو منتخبات نفيسة من دواوين شعراء عصر المرشحين
مثل ابن حبوس وأبى العباس الجراوى وابن مجبر بن عبد الواسع ونس القسطللى
وابن زهر الحفيدو وترجع أهميته إلى أن معظم الدواوين التى رجح إليها - ان
لم تكن كلها - مفقودة .

(١) د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

- المطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب عمر بن حسن بن دحية،
وفيه ترجمات ونصوص قلما توجد فى غيره، خاصة ماتعلق بابي الحكم الغزال
- تحفة القادم لابن الأبار ، وقد عارض به كتاب "زاد المسافر" ، وفيه
بدوره ترجمات ونصوص مما لا يوجد فى غيره
- الحلة السيرة لابن الأبار أيضا، وقد وصفه محقق الكتاب د. حسين
مؤنس بأنه دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة بل هو من عيون
مألف أهل الأندلس قاطبة، ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو
يكتب فى أي ناحية من نواحي الحياة فيه "
- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد: وهو موسوعة أدبية ضخمة تشمل
الأندلس وصقلية والمغرب ومصر ، وقسم بحسب المدن والأقاليم وفائدته أعم من
أن تحصى
- ومن كتب ابن سعيد كذلك :
- القدح المعلى فى التاريخ المحلى ونشر منه اختصار بالقاهرة (١٩٥٩)
بعناية ابراهيم الإبيارى ثم أعيد نشره . ١٩٨٠
- الفصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ونشره ابراهيم
الابيارى بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ثم أعيد نشره سنة ١٩٦٧
- رايات المبرزين وغايات المميزين ونشره جومث فى مدريد سنة ١٩٤٢
ثم حققه بالقاهرة د. عبد المتعال القاضى سنة ١٩٧٣
- كتاب الغراميات، وهو مفقود ، ونشر قسم منه بتحقيق د. سعيدة
محمد رمضان فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
- المقتطف من أزهار الطرف، وقد نشر د. عبدالعزیز الأهوانى قسما منه
بتعلق بالموشحات والأزجال ثم نشره كاملا د. سيد حنفى بالقاهرة سنة ١٩٨٤.

عنوان المرقصات والمطربات، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ، ثم نشر في بيروت سنة ١٩٧٣ في طبعة سقيمة

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، احد أساطين الأدب والعلم في الأندلس في العصر الغرناطي ، وكتابه هذا وان ركز على غرناطة إلا أنه يعد في واقع الأمر بمثابة تاريخ شامل للأندلس وقد نشره بالقاهرة محمد عبد الله عنان. وللسان الدين بن الخطيب حشد من المؤلفات ، من أهمها في مجال الأدب :

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة

ريحانة الكتاب ولجعة المنتاب

السحر والشعر

جيش التوشيح

روضة التعريف بالحب الشريف

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. وهذا الكتاب موسوعة عامة عن الأندلس تاريخها وأدبها، وهو "أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، وكان مصدرا لأكثر ما عرفه المشاركة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر ؛ وقد طبع في بولاق سنة ١٢٧٩ ونشر القسم الألي من النفع في ليدن سنة ١٨٥٥ بعناية طائفة من المستشرقين على رأسهم دوزي ، كما ظهرت منه طبعة بإشراف الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩) وأخرى نشرها د. احسان عباس (بيروت ١٩٦٨)

وللمقرى كتب أخرى ذات فوائد أدبية جمة أهمها ولاشك "أزهار الرياض في أخبار عياض" طبعت منه ثلاثة أجزاء بالقاهرة (١٩٣٩-١٩٤٢) بعناية مصطفى السقا ومن معه ثم نشرت بقية الكتاب بالمغرب مؤخرا (١٩٨٠).

وربما كان فى تناول أوضاع المرأة مايساعد على إبراز بعض ملامح الشخصية الأندلسية، وبعيدا عن التفصيلات : فالثابت أن المرأة كان لها فى المجتمع الأندلسى مكانة بارزة ، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك كثرة عدد الشاعرات، وأقدمهن ، فيما يذكر صاحب "نفع الطيب" ، "الجارية العجفاء" - من شاعرات القرن الثانى ، وكانت من جوارى عبد الرحمن الداخل ولها شعر رقيق فى الغزل، وهناك أيضا حسانة التميمية التى تعد أول شاعرة "أندلسية" بمعنى الكلمة، إذ انها ولدت على أرض الأندلس، وعاشت فى أخريات القرن الثانى الهجرى، ومن الشاعرات المبرزات حفصة بنت حمدون الحجازية - وكانت فى المائة الرابعة، على حد تعبير صاحب "المسهب"^(١) - وهناك شاعرة حجازية أخرى من أصل بربرى هى أم العلاء بنت يوسف^(٢) وبعضهن ينتمى لعائلات ذات حسب ونسب مثل ولادة بنت المستكفى - ولنا إليها عودة - ومثل أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح

ومن شاعرات الأندلس المشهورات نزهون الغرناطية - بنت القليعى - وحفصة بنت الحاج -وهى غرناطية أيضا - وقد أحبها أبو جعفر أحمد بن سعيد وزير بنى عبد المؤمن ونافسه فى حبها الملك الموحدى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ومن جميل شعرها الغزلى :

أغار عليك من عيتى رقيبى

ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعتك فى عيونى

إلى يوم القيامة ماكفانى

(١) المغرب ٢/٣٧

(٢) شرحه ٢/٣٨

وهى لا تتورع أن تكتب الى وزيرها العاشق:

أزورك أم تزور فإن قلبى

الى ماتشتهى ابدأ يميل

وقد أمنت أن تظمى وتضحى

إذا وافى الى بك القبول

فشغرى مورد عذب زلال

وفرع ذؤابتى ظل ظليل

فجعل بالجواب فما جميل

أناك عن بثينة يا جميل

وفى هذه الأبيات ما يذكر بما وجهه النقاد من نقد لعمر بن أبي ربيعة أذ جعل النساء فى شعره يعربن عن مشاعرهن تجاهه ، على نحو ما أورد صاحب "العمدة" الذى أضاف بعد ذلك :

قال بهم - أظنه عبد الكريم : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة، والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النخيزة فى العرب وغيرتها على الحرم^(١) وأظن أن ذلك ينطبق على الشاعرة حفصة بوضوح

والباحثون متفقون على أن الأندلسيين ذهبوا بتبجيل المرأة الى مدى بعيد للغاية ويمكن القول بأن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصنف دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا فى

(١) العمدة ج ٢ ص ١٤٨ وراجع د. عبد العزيز الأهواني: الزجل فى الاندلس ، ص ٥ .

أنفسهم علاقتهم بها لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية أو ان شئت الدقة لتكون اكثر فطنة والطف رقة وأروع تهديبا وأصقل ذوقا.. والنماذج المحموده فى اسبانيا الإسلامية ليست مميزة للطبقة المتميزة . انها تمتد فى كل مكان وتظهر عفويا ، ملونة هنا وهناك بالسخرية البريئة ، وبالتربية المصقولة^(١)

والخلاصة أن أوضاع المرأة فى الأندلس كانت ، بصورة عامة ، أفضل من مثيلاتها فى الشرق، حقيقة إننا لا نجد فيه من تناظر "شجر الدر" مثلا ، ولكن المرأة فى الأندلس تولت عدداً من المناصب الهامة فى الدولة " فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبدالرحمن ، وهى نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، عروضية خطاطة، وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة فى الخط، وشارك بعضهن فى رواية الحديث، ^(٢) وما ينبغى أن يذكر فى هذا الصدد أن ابن حزم فى "الفصل" رأى أن الحديث القائل بأن النساء ناقصات عقل ودين لا يؤخذ على الإطلاق وفى جميع الأحوال "اذ بالضرورة تدري أن فى النساء من هن أفضل من كثير من الرجال، وأتم دينا وعقلا.." ^(٣)

هذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال عن الأندلس ، ولاشك أن هناك مخفضات ينبغى أن تساق بشأن بيئات محلية معينة، وبشأن مراحل تاريخية مختلفة، ولكننا نعتقد أن تلك الخطوط العريضة التى مرت ترسم - على علاقتها - صورة عامة عن الأندلس ، ولاشك أن أبعاد هذه الخطوط العامة سوف تزداد وضوحا من خلال الحديث عن مسارات الأدب الأندلسى عبر عصوره المختلفة ..

(١) د. بيرييس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف : ترجمة د. الطاهر مكى ص ٣٧١

(٢) د. احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس (عصر سيادة قرطبة) ص ٢٦

(٣) الفصل ج ٤ ص ١٣٢

الشعر الأندلسي من البدايات إلى مرحلة النضج

إن التقسيمات التاريخية والسياسية التي مرت مما يستعين به دارس الأدب لاعتبارات كثيرة لسنا في مجال حصرها الآن، ولكنها - على كل حال- لا يمكن أن تلزمنا بإخضاع دراسة نشأة وتطور الأدب لها، على الرغم من أن صور الأحداث السياسية التي مرت بها الأندلس كانت ماثلة في صميم هذا الأدب، وأصداء التحولات الاجتماعية كانت تتبدى مع كل مرحلة مرت بها أعمال هؤلاء الأدباء . فإذا مافتشنا عن سبيل لقياس "أندلسية" الأديب من غيره لم نجد إلا مقاييس نسبية من قبيل ماأورده ابن حزم من أن الإجماع معقود "على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات .. فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا، الذين اجتمعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا إلى غيرنا فالنظ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به " (١) ويقول كذلك :

"ويلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ماإن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومداد المعارف وأربابها .

ونحن اذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به

(١) ابن حزم في رسالة في فضل الأندلس ، راجع بشأنها د. احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلس ج ١ ص ٤٣ ، ونص الرسالة ص ٣٤٧ - ٣٦٩

الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائىل لا على طريقة المحدثين . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا احمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبیب والمتنبى فكيف لنا ومعه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان واغلب ابن شعيب ومحمد بن شخيس واحمد بن فرج وعبد الملك سعيد المرادى ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه .." (١)

وفى إشارات ابن حزم ما يدل دلالة قاطعة على أن جيل "الرواد" من الشعراء بالأندلس كان يضم بين جنباته أسماء كثيرة جاءت الي الأندلس من المشرق، والملاحظة الثانية أن جميع من ذكرهم - باستثناء ابن دراج - فقدت دواوينهم ، ولم تبق لهم الا شذرات مبعثرة هنا وهناك ، مما يكشف عن مدى حجم الضياع الذى تعرض له التراث الأدبى والعلمى الأندلسى.

ولا يعرف شئ كبير عن جمونة هذا إلا أنه كان شاعرا فارسا ، ولذا يلقب بـ "عنتره الاندلس" (وسبتدا ظاهرة تلقيب شعراء الأندلس بألقاب مشرقية تتوالى تباعا) وأنه كان يعيش فى نواحي قرطبة فى أخريات عصر الولاة وهناك شاعر آخر ظهر فى هذه الفترة هو أبو المخشى عاصم بن زيد (٢) ، ونهجه كذلك نهج البداوة فى شعره (وهو أبو الشاعرة حسانه التى ذكرت قبلا) ولم تحفظ الكتب له الا مقطعات قليلة منها قوله :

وهم صافنى فى جوف ليل

كلا موجيهما عندى كبير

(١) رسالة فى فضل الأندلس ، ص ٣٦٨

(٢) يعود أصله الى نصارى الحيرة، وكان هجاء ، مترددا على الأمراء بمذائعه . راجع عنه ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ وفى الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٧٧ وابن سعيد فى المغرب ١٢٣/٢ الخ ..

فبتنا والقلوب معلقات

وأجنحة الرياح بنا تطير

والبيتان فيهما رهافة ، وصور حية رائقة، والصورة الأخير "وأجنحة الرياح بنا تطير " تهين السامع لوثبة شعورية من خلال مقطع عن الترحال والاعتراب أو نحو ذلك لكن النص - مع الأسف - يبتدئ عند هذا الحد، ولعله من قصيدة فى المديح، فقد كان أبو المخشى يتردد على أمراء البيت الأموى ، والمرجح أنه توفى فى اخريات القرن الثانى الهجرى .

وهناك أيضا عباس بن ناصح الجزيرى ، نسبة للجزيرة الخضراء ، ولكن نشأته بمصر، وله رحلة للحجاز وللعراق ولقاء مع أبى نواس ثم عودة للأندلس، ولا توجد من شعره الا نتف لا تكشف على نحو واضح عن مدى قيمته ومن عجيب الأمر أن ابن حزم أغفل الإشارة الى عبدالرحمن (الداخل)، فهل مرجع ذلك الى أنه كان أميرا فارسا مشيدا للدول فاتحا للممالك ، قبل أن يكون منشئا للقصائد، مدبجا للأبيات؟ ربما، على أن مؤرخى الأندلس لم يغطوا الداخل نصيبه من الشاعرية ، وهاهو المراكشى يصفه فى "البيان المغرب" بأنه "كان فصيحاً بليغاً حسن التوقيع جيد الفصول مطبوع الشعر"، وسنتوقف أمام هذا الشعر لأنه جيد حقاً، ولأنه يكشف عن أزمة هؤلاء الوافدين الذين أحسوا بأن مصيرهم مرتبط بالأندلس ، لكنهم كانوا يشعرون فى الوقت ذلك بفرط الحنين الى الديار المشرقية الغائبة وراء الأفق ، مفعمة بالذكريات الندية الأسرة ، مترعة بصور الطفولة اللاهية والشباب الذى انطفاً وميضه مع الأيام. هكذا تنداح أبيات الداخل وقد رأى من يتأهب للرحيل للمشرق :

أيها الراكب الميمم أرضي

أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمى كما علمت بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا
فعمسى باجتماعنا سوى يقضى

أو يقول (بديهة ، فيما يذكرون) وقد مر على رصافة قرطبة، فهاجت فى صدره الذكريات، وحركت "نخلة منفردة" أشجانه ، فصدح لسانه بهذا النشيد
الملتاع :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناهت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت: شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل

لماذا حركت النخلة كل هذا الشجو الطاغى ، ودفعته لأن يرى فيها
"معادلا" لغربته، يعترف أمامه بما تخفيه لواعجه، لماذا يتكرر ذكر النخلة فى
البيت الأول ثلاث مرات متواليات ولماذا هذا الالحاق على "التغرب" و "النوى" و
"الاقصاء" و "المنتأى" ، حتى لنحس بالدموع تنساب على وجنتيه، واختلاجة
الأسى تنتفض بين أضالعه ...؟

ومن الملاحظ أن هناك مقطوعة أخرى على غرار السابقة تقول
أبياتها :

يانخل أنت غريبة مثلى

فى الغرب نائية عن الأصل

فابكى وهل تبكى

عجما لم تطبع على خيل

لو أنها تبكى إذن لبكت

ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت، وأذهلنى

بغضى بنى العباس، عن أهلى

والمقطوعة الأخرى تنسب أحيانا لأمير أموى آخر هو عبدالملك بن عمر
ابن الحكم الذى اجتاز فى قصده قرطبة ... بمدينة اشبيلة فرأى فى موضع
منها.. نخلة مفردة، فلحقته رقة عند النظر اليها ، وقال بديها الأبيات المذكورة"
أيا كان الأمر فإن فى شعر الداخل ظواهر لاتخفى^(١)، منها أنه فى
معظمه يأتى "مقطوعات" لاقصائد، ومدارها حول "الذات" فى ضعفها وأيضا فى

(١) راجع أيضا مقطوعته التى أولها:

شتان من قام ذا امتعاض
فجساب قفرا وشق بهرا
فشاد مجدد ريز ملكا
وجند الجند حين أودى
ثم دعا أهله جمبعا
فجاء هذا طريد جوع
فنال أمنا ونال شبعما
ألم يكن حق ذا على ذا

منتضى الشفرتين نصلا
مساميا لجة ومحلا
ومنبرا للخطاب مصلا
ومصر المصر حين أخلى
حيث انتأوا أن هلم أهلا
شريد سيف اباد قتلا
وحاز مالا وضم شمالا
أعظم من منعم ومولى

توثبها وإبانها وما يندلع فيها من روح التحدى والكبرياء، مثل أبياته التي قالها وقد بلغه أن أحد المقرين له قال مامعناه ان الداخل لم يبلغ ما بلغ من شأن إلا بفضل مؤازرته له ، فاعترت الداخل غضبة عبر عنها شعرا بقوله :

لا يلف ممتن علينا قائل

لولاى ماملك الأنام الداخل

سعدى وحزمى والمهند والقنا

ومقادير بلغت وحال حائل

ان الملوك مع الزمان كواكب

نجم يظالعنا ونجم آفل

والحزم كل الحزم ألا يقفلوا

أيريد تدبير البرية غافل

ويقول قوم سعده لاعقله

خير السعادة ما حاماها العاقل

ابنى أمية قد جبرنا صدعكم

بالقرب رغما والسعود قبائل

ما دام من نسلى إمام قائم

فالملك فيكم ثابت متواصل

وامتد الإحساس الشعري الى الكثيرين من أمراء بنى أمية فى الأندلس ، مثل هشام الأول (الرضا) ابن عبد الرحمن الداخل، وعنه يقول المقرى إنه كان "إذا حضر مجلسا امتلا أديبا وتاريخا وذكرا"، أما الحكم (الريضى) ابن هشام ففيه يقول صاحب الحلة السيرة: "كان أديبا مفتنا ، وخطيبا مفوها وشاعرا مجودا ، تحذر صولاته ، وتستندر أبياته" وله قصيدة مشهورة قالها عند فتكه

بأهل الريض لما ثاروا عليه، ووصفت بأنها؛ أحسن شعر قيل فى معناه" (١)

وأولها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا

وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة

أبادرها مستنضى السيف دارعا

وله أيضا قصيدة أخرى ذات طابع بطولى ، يقول فيها:

غناء صليل البيض أشهى الى الأذن

من اللحن فى الأوتار واللهو والردن

إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا

أرتك نجوما يطلعن من الطعن

ومع ذلك فإن للحكم شعرا كله شكوى من هجر المحبوب وعذاب الهجران

والتذلل والتضرع على نحو ما يأتى فى قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا

ولقد كان قبل ذاك مليكا

ان بكى أوشكا زيد ظلما

وبعادا بدنى حماما وشيكا

هكذا يحسن التذلل فى الحب

(م) اذا كان فى الهوى مملوكا

(١) المغرب ٤٤/١

ومن ابرز الأمراء الشعراء أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وكذلك
المستعين . سليمان بن الحكم) الذى تأثر بالأبيات المنسوبة لهارون الرشيد :

ملك الثلاث الأتسات عنانى
وحلن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه قوين - أعز من سلطانى

فكتب هو :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجنان
وأقارع الأهوال لامتهيبا
منها سوى الإعراض والهجران
وتملكك نفسى ثلاث كالدنى
زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لمن لناظر
من فرق أغصان علي كشبان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري
حسنا وهذى أخت غصن البان
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى
ذل الهوى عز وملك ثان

ومن شعراء البيت الأموي أيضا (المستظهر) - عبد الرحمن بن هشام ،
الذي يوصف بأنه كان على حداثة سنه يقظا ذكيا صاحب "بديهة رويه ويصوغ
قطعا من الشعر مستجادة"^(١) ومن أشهر شعره قصيدته في محبوبته "العشمية"
التي نوهت به مصادر الأدب الأندلسي مثل "الذخيرة" و "الحلة السراء" و
"المعجب" ، ولهم الحق في هذا التنويه فإنها نمط رفيع من الشعر، يجمع بين
"كلاسيكية" التعبير وصدق الشعور وبراعة الصور وحيوية الأداء ، وقد استهلها
بما لاقاه من عدم ترحاب أهل محبوبته به ، فوجهه إلى "الحبيبة" - وكان اسمها
كذلك - ليقول في صدق وسذاجة:

جعلت لها شرطا على تعبدى

وسقت إليها في الهوى مهجتي مهراً .

تعلقتها من عيد شمس غريرة

محدرة من صيد آباتها غرا

حمامة بيت العشميين رفرقت .

فطرت إليها من سراتهم نسرا

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى

يضرك منه أن تكونى له فطرا

وانى لأستشفى بجزى بداركم

هدوما واستسقى لساكنها القطرا

وألصق أحشائي ببرد ترابها

لأطفى من نار الأسى بكم جمرا

وفى هذه القصيدة نفحات من غرر قصائد ذى الرمة وجميل بثينة ولعلها

(١) الذخيرة ١ / ٥٧

من أجود ما ألف في زمانها نصاعة عبارة وصدق إحساس .

ويمكن القول بأن حركة الشعر إبان هذه الفترة تخضع لمجموعة اعتبارات ،
منها ان الأسماء البارزة في الأدب ذات أصول مشرقية واضحة ، وأن هذا الشعر
يتأرجح بين الطابع القديم النمط الجديد الذي بدأ يتألق بالمشرق على أيدي
المجددين الكبار من أمثال بشار وأبي نواس وكأنما كان الشعر انذاك في مرحلة
ترقب، ينتظر من يعينه ليصل الى مرحلة النضج والاكتمال ، ويضفى عليه
طابعا يميزه عبر الزمن .

يحيى بن الحكم الغزالي واكتمال الشخصية الأدبية الأندلسية

مرت بنا في الصفحات السابقة ملامح مما كتب في الأندلس على أيدي الشعراء الطارئين، وبعض أمراء البيت الأموي من ذوي الميول الأدبية، وهذا كله يمثل البدايات التي لم تشكل تياراً أو اتجاهات واضحة المعالم محدد السمات، ذلك أن الحركة الأدبية في بلد من البلدان لا تنهض بين يوم وليلة كما قد تنشأ الدول، وإنما هي نتاج محاولات شتى لا تنضج إلا ببطء، ومن خلال عشرات التجارب والمحاولات والرأى السائد في هذا الصدد يقول إن :

" الشعر الأندلسي الذي رسخ أصوله أناس نبتوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود سنة ٢٠٠ هـ - وهذه حقيقة هامة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها والمجالات التي كان يرودها، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس، ويقف على مفترق الطرق بين مذهبي أبي تمام والبحتري، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفون في كل شيء إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثلاً يقلدونه ومناراً يهتدون به، أي أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو النموذج الكبير الذي استوحوه في أشعارهم وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم" (١)

ومن حسن حظ الأندلس أنها شهدت مع أخريات القرن الثاني الهجري ظهور شاعر يصح أن يقال عنه إنه "أندلسي" بحق، بحياته، وبالروح الشعري الذي نضج عنده، وبطبيعة الموضوعات التي عالجها، هذا الشاعر هو يحيى بن

(١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ج ١ ص ٤٨

الحكم الغزال (١٥٠ - ٢٥٠ هـ ، ٧٧٠ - ٨٦٤ م) ، وصدق من قال إن الشخصية الغزال سحرها الخاص ، لا يملك من يتعرف عليها إلا الإحساس بالإعجاب والمحبة ، المعاشة ان لتلقى فيه الشاعر الساخر في الموقف العصيب ، أو الدبلوء . سى البارع الخفيف الظل ، فتعجب به ، وتلمع في سريره النقاء والصفاء الهندسى فتحبه وتطلع على من اعماقه ومحاوراته فتحسن أنك تعيش على مقربة منه ، ويبقى السحر الخاص أبعد من أن تفسره علاقات المعاشة والمحبة والإعجاب ، ثمة شئ آخر ، شئ يشبه أن يكون "سرا" معلقا حاول الأندلسيون أن ينفكوا طلاسهم فزادوه انغلاقا حين سموا الغزال: "عراف الأندلس" ، وفى المعجم "وقال للحازى: عراف ، وللقناقن: عراف وللطبيب عراف والحازى هو الذى يقرأ الأسرار ويدعى علم الغيب ، والقناقن: المهندس الذى يعين مواضع الماء تحت الأرض ، فأى ذلك كان الغزال حين أطلق عليه عراف الأندلس"؟ أسئلة تتوالى - وكثير منها بقى بلا جواب ، عن هذا الشاعر الداهية ، التى أضيف الى جوانبها "الأسرارية" أنه ارتحل الى العراق متنكرا ، فيما يقال ،^(١) وفى بعض الإشارات عنه ما يكشف عن تطلعه لأن يكون وريث زعامة الشعر من بعد أبى نواس ، ثم نرى له عودة إلى بلاده ، وسعى إلى الثراء يقوده إلى السجن ، ورحلات وسفارات إلى "بلاد المجوس" - حكايات كثيرة عن هذا الشاعر الوسيم "ومن ثم لقب بالعل" هى التى سوف نحاول التعرف عليها من خلال ما سلم من شعره ، ذلك أن ديوانه قد فقد وما وصل إلينا من أعماله ، لا يكاد يبلغ ثلاثين أو أربعين صفحة .

ولسنا نريد أن نشغل طويلا بتفصيلات حياته أو بالأحرى بما وصل إلينا منها وبحسبنا أن نذكر أنه ينحدر من أصول عربية عريقة (من بنى بكر بن وائل) وأنه ولد فى مدينة جيان فى الجنوب الغربى من شبه القارة الأيبيرية ، سنة ١٥٠ أو نحوها (وبعض المراجع تجعل تاريخ مولده سنة ١٥٤ هـ) فى رمن

(١) مقدمة كتاب من صادق البنداق : يعينى بن الحكم الغزال (احسان عباس)

إمارة عبد الرحمن الداخل ، وتربى تربة دينية جيدة ، كما نشأ على "أخلاق الفروسية" كما تقول المصادر ، وقد عمر قرابة مائة سنة مما يدل على قوة بنيانه وعاصر خمسة من أمراء البيت الأموي هم :عبدالرحمن الداخل وابنه هشام ثم الحكم وعبد الرحمن الثاني، وجانباً من إمارة الأمير محمد، وله فى ذلك - من أرجوزة :-

أدرکت بالمصر ملوکا أربعة

وخامسا هذا الذى نحن معه

واكتسب خلال عمره هذا المديد قدرا فوفوراً من الثقافة فى علوم اللغة والبلاغة والأدب والفلسفة والفقه والفلك ، كما يذكرون أنه كان يجيد الروميه - اللاتينية - واهتم بالتاريخ ، ويذكرون له فى هذا الصدد أرجوزته - التى ذكرنا شيئاً منها - فى التاريخ لفتح الأندلس ، وقد اطلع عليها مؤرخ الأندلس ابن حيان ، صاحب "المقتبس" و "المتين" وأشاد بها بما يكشف عن أنها كانت جميلة طويلة عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التى جرت بين المساحين وأهل البلاد، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع فى أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس، وقد ضاعت هذه الأرجوزة^(١) ولعلها من أوائل الأراجيز التعليمية التاريخية فى الادب العرب ان لم تكن أولها جميعاً، ذلك انها أسبق من أرجوزة ابن المعتز فى تاريخ البيت العباسى ، وأسبق بطبيعة الحال من أرجوزة ابن عديريه فى التاريخ الأندلسى .

وفى بعض المصادر مايدل على أن الغزال حاول محاكاة القرآن الكريم فيها هو القاضى عياض فى "الشفاء" يقول: "وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه، فحكى أنه رام شيئاً من هذا، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها. قال: فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى

(١) نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسى لبالانسيا ص ٥٦

على التوبة والإنابة" (١) ، ويبدو هذا غريبا على شخصية أندلسية بارزة مقربة من الملوك والأمراء ، وفي هذا التصرف ما قد يكشف عن سلوك فردي أو عن مسلك "أندلسي" وهو - من الناحية الأدبية - يدل دلالة قاطعة على أن الغزال كان مبرزاً في النثر تبريزه في الشعر وإيثاراً للإيجاز نترك جانبا الأمور الزخري المتعلقة بحياته ، والموضوعات المختلفة التي تردت في شعره لنتوقف فحسب زمام السمات الأساسية كما تتمثل في شعر النقد الاجتماعي وفي حديث سفاراته ؛الدبلوماسية" ببلاد "المجوس"!

- شعر النقد الاجتماعي:

للحميدى في جذوة المقتبس جملة تقول إن "الغزال رئيس، كثير القول ، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل" (٢) وقال الضنبى في "بغية الملمس" إن الغزال ؛جليل في نفسه وعمله ومنزلته عن أمراء بلده (٣) وأجمل مؤرخ الأندلس في العصر الحديث محمد عبدالله عنان ، الحديث عن هذه المكانة قائلا:

بالإضافة إلى صفة الشاعر الفيلسوف، والمفكر الحر، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هي صفة الحكيم الناصح، والسياسي المحنك ، واشتهر بأصالة الرأي وحسن التدبير واللباقة والدهاء ، مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، لكن هذه الخلال كانت تفسح له في بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير" (٤)

ومن المهم أن نشير إلى هذه المكانة ونحن بصدد الحديث عن شعر النقد الاجتماعي عنده لأن الغزال - على ما سنرى - كان سليط اللسان أحيانا بحيث

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٥/١ وراجع نفع الطيب ج ٢ ص ٢٦١

(٢) جذوة المقتبس ، السابق

(٣) بغية الملمس رقم ١٤٦٧

(٤) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ١٣٨

أوغر صدر عدد من الناس عليه ، ومن هؤلاء المغنى الشهير زرياب الذى انتقل من بغداد إلى قرطبة حيث اختل عند اميرها عبدالرحمن (الثانى) منزلة مرموقة، وأصبح زرياب شخصية اجتماعية من الطراز الأول فرضت على المجتمع ذوقها ونظرياتها فى الثياب وتناول الطعام وطبيعة الغناء، وربما أثارت هذه المكانة الغيرة فى نفس الغزال فأطلق أهاجيه فى زرياب (ولم يصل إلينا منها شئ) وأثرت هذه الأهاجى فى زرياب فشكاه إلى الأمير، فكان أن أصدر هذا قرارا بنفى الغزال، ونجحت الوساطة فى دفعه للعدول عن أمره هذا ، إلا أن الشاعر الكبير حز فى نفسه أن تؤول الأمور الى هذا الموقف ، فارتحل عن البلاد الى بغداد حيث بقى فيها زمنا وقد خاض الغزال معركة ضارية ضد بعض الفقهاء والقضاة المرتشين والمتعسفين ، وكان مما قاله وقد سأله قاضى قرطبة - معاذ بن عثمان - عن رأيه فى أحد من ولاهم أحياس قرطبة :

يقول لى القاضى معاذ مشاورا

رولى امرأ ، فيما يرى ، من ذوى الفضل

فديتك ، ماذا تحسب المرء صانعا؟

فقلت : وماذا يصنع الدب بالنحل؟

يدق خلاياها ويأكل شهدها

ويترك للذبان ماكان من فضلا

ويقول فى فقهاء عصره اذ رأهم وقد تضخمت ثرواتهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا

ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الر

(م) زق والقوم هاهنا قاعدونا

إن للقوم مضرباً غاب عنا

لم يصب قصد وجهه الراكبونا

ولم يكن الغزال يتوانى عن توجيه النصيح لذوى الجاه حتى برعوا ،
راسماً صورة واقعية لما يؤول اليه خالهم بعد أن ينطوى عنهم بريق السلطان :

وإن أعطيت سلطانا

فحاذر صولة الزمن

أخو السلطان موصوف

بحسن الرأى والفظن

فساعة مايزاوله

رماه الناس باللعن

ويصبح رأيه المحمود

منسوبا الى الأفن

كأن بشاشة السلطا

ن حين تزول لم تكن !

وقد حاول هؤلاء الفقهاء النيل من الغزال ، مستغلين بعض ما جاء فى شعره من تساؤلات حائرة عن القضاء والقدر والواقع أن الغزال لم يكن ملحدا ولا متشككا. لقد كان مسلما وزاهداً ، ولو أنه فى بعض ساعاته نظم ما عن له عن النفس والروح بأسلوب يجوز أن نسميه اليوم بالأسلوب العلمى ، ولكن دون أن ننعت الغزال بالتخلى عن الإيمان والشك بالله عز وجل" (١)

ويبلغ الغزال الذروة من الإجابة والنقد اللاذع فى مقطوعاته "الاجتماعية"

(١) د. البنداق ، السابق ص ٣٨

من قبيل قوله:

وخيرها أبوها بين شيخ
كثير المال أو حدث فقير
فقلت :خطئا خسف وما إن
أرى من حظوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شئ
أحب إلى من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يثرى
وهذا لا يعود إلى صغير

وقوله :

قلت أحبك ، قلت كاذبة
غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله
الشيخ ليس يحبه أحد .
سيان قولك ذا وقولك إن
(م) الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة
أو أن تقولى الثلج يتقد

بل إن الرجل لم يتوان عن تناول ذاته من منظور السخرية والنقد اللاذع،
الذى يتجسم فى قصيدته البائية "خرجت إليك وثوبها مقلوب" وتروى كتب
الأدب على لسان تاجر أندلسى يدعى عتبة: "وجهنى الأمير الحكيم وابنه
عبدالرحمن إلى المشرق . وكان عبدالله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون

عباسي، فلقيته بالعراق فسألني عن قصيدة الغزال التي مطلعها:

خرجت إليك وثوبها مقلوب

ولقلبها - طربا إليك - وجيب

وعما إذا كتبت أحفظها فقلت نعم، فاستنشدتها فأنشدته إياها، فسر بها كتبها، ونلت بها حظا عنده" (١)، فهذه قصيدة يحفظها الناس ويطلبها عشاق الأدب في مختلف الأقطار، لأنها نموذج فريد في نقد الذات على نحو لا يكاد يعرف عند سواه، وهو القائل أيضا في أرجوزة:

تسألني عن حالتي أم عمر
وهي ترى ما حل بي من العبر
وما الذي يسأل عنه من خبر
وقد كفاه الكشف عن ذاك النظر
وماتكون حالتي مع الكبر
أريد مني الوجه وأبيض الشعر
ونقص السمع بنقصان البصر
وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامني من ضامني لم أنتصر
فانظر إلي واعتبر ثم اعتبر

(١) البنداق، السابق ص ٦٢ وللقصيدة رواية أخرى تختلف في كثير من الأبيات، ومطلعها في الثانية:

لم أنس إذ برزت إلى لعوب
طربا وحيث تمبصها مقلوب

فإن للحليم في معتبر (١)

سفارة الغزال :

هذا موضوع استهوى المؤرخين ، وكتبوا فيه كثيرا في محاولة للكشف عن غموضه ، خاصة وأن المصدر الأساسي حول هذه السفارة (كتاب ابن دحية الكلبي: المطرب في أشعار أهل المغرب) متأخر عن الغزال بنحو أربعة قرون ، والمعضلة أيضا أن المادة التي يقدمها ابن دحية مضطربة وتخلو من التحديد المفترض في المؤلفات ذات الطابع التاريخي .

ولن نوغل طويلا في الاختلافات التي توقف المؤرخون من قدامى ومحدثين - بإزائها، ونبدأ بكلام ابن دحية لنورد منه القليل الذي يغنى عن الكثير :

"ولما وفد على السلطان عبد الرحمن (الثاني) رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعها بجهاتها ثم هزمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك فأمر الغزال أن يمشى في رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام، والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب ، فنهض إلى مدينة شلب ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته ، وكوفئ على هديته ، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاؤوا فيه مع مركب الغزال" ..

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار ووصل أول بلاد

(١) انظر أيضا قوله :

قال الأمير مداعبا بمقاله

أين الجمال من امرئ أرى على

أين الجمال له، الجمال من امرئ

جاء الغزال بحسنه وجماله

متعدد السبعين من أحواله

لقاه ريب الدهر في أغلاله

المجوس.. وهى جزيرة عظيمة فى بحر المحيط ... وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ثم يمضى تقرير ابن بدحية ، ليتحدث عن لقاء الوفد - وعلى رأسه الغزال - بالملك ، الذى دهش من ذكاء الشاعر العربى وحسن تخلصه ولباقته ووصفه بتلك العبارة: " هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهائهم " أو هكذا كان الغزال حقا، وفى بقية الحديث

" وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، فى بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفى بعضها تناضل شجعانهم فأثبتتهم . ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ، ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظرة المتعجب ، فقالت سله عن إدمان نظره لماذا هو ؟ أفرط استحسان أم لصد ذلك، فقال: ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرا مثل هذا.. " الى آخر المواقف الغزلية التى أفاض ابن دحية فى ذكرها ، ونقل أخبارا مما رويت عن رفاقة فى الرحلة تدل على أن الملكة " أولعت بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوما حتى توجه فيه، ويقوم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم ويمن يجاورهم ... وكان الغزال فى اكتهاله وسيما ، وكان فى صباه جميلا، ولذلك سمي بالغزال ، ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد خطه الشيب.. ولكنه كان حسن الصورة وفى الحديث الذى مضى إشارة إلى :المجوس" الذين كانوا قد هاجموا إشبيلية ثم ارتدوا عنها مهزومين وأرادوا الصلح ، وهنا ينبغى تفسير تعبير "المجوس" على أنه يعنى "الفايكنج" أو النورمان الشماليين الذين كانت لهم بالفعل غزوة تحدث عنها ابن الأثير فى تاريخه "الكامل" - أخبار سنة ٢٣ وسماهم بدوره بـ "المجوس" لكن لسان الابن ابن الخطيب يورد رأيا آخر بشأن هذه الحملة، إذ يقول بصدد عهد الأمير عبدالرحمن الثانى - ابن الحكم - :

" وفى أيامه خرجت مراكب المجوس فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وشذونه واشبونة ثم انهزموا والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة

بالانقليش وأهل المشرق بالفرنج وبالانكليز، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين." وإذن فهناك رأيان بشأن المجوس: أن يكونوا سكان الشمال أو أن يكونوا الإنجليز، وانعكس هذا الخلاف على كتابات المستشرقين والمؤرخين المحدثين، وكان من رأي الفريق الأول أن ملك المجوس المعنى هو هوريك ملك الدنمرك "بينما يذهب أصحاب الرأي الثاني (ومنهم المستشرق إلن) إلى القول بأن المعنى هنا ملك ابرلندا تورغايس

وتنبغى الإشارة إلى طرف ثالث من أطراف النزاع، ذلك أن التاريخ يتحدث عن سفارة تمت انذاك بين أمير قرطبة - عن الرحمن الثاني - وبين يتوفيلس إمبراطور بيزنطة، والذي كان يسعى إلى تغذية الصراع بين العباسيين وبين أمراء قرطبة الأمويين حتى لا تتجه كل القوى العباسية ضده وحده وكان ذلك في سنة ٢٢٥ هـ على وجه التحديد (٨٣٦م) وقد أورد ابن حيان في "المقتبس" أخبار هذه الفارة، ونقلها عنه المقرئ في نفع الطب حيث يأتي "أن الأمير عبد الرحمن" بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم، فاعجبه حديثه، وخف على قلبه .. وكان يوما جالسا عنده، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها..."^(١)

وللمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال رأى يرجح فيه أن رحلة الغزال كانت إلى القسطنطينية وأما الرحلة إلى بلاد النورمان (المجوس) فنسجها الخيال الشعبي، ولم يكن لها وجود فعلى، إلا أن هناك اتجاه آخر يتحدث عن سفارتين أولاهما إلى بيزنطة والثانية إلى بلاد النورمان و ذلك في محاولة للتوفيق بين ماجاء عن ابن حيان ثم ابن دحية .

وقد ورد اسم الملكة في شعر الغزال على أنه (نود) وبصر بروفنسال على

(١) نفع ج ٧ ص ٣٧٢

أن يجعلها: تود لأن زوجة الأمبراطور البيزنطى كان اسمها انذاك تودورا ، بينما يرى غيره أن اسم (نود) يمكن أن يكون تحويرا عن اسم نورمانى مألوف عندهم وأيا كان الأمر فإن الشعر الذى خلفه الغزال فى الملكة الأوربية يمثل حالة خاصة لا يكاد يوجد لها نظير فى الشعر العربى ، مثل هذه الأبيات :

كلفت ياقلبي هوى متعبا

غالبت منه الضيفم الأغلبا

انى تعلقت مجوسية

تأبى لشمس الحسن أن تقربا

أقصى بلاد الله فى حيث لا

يلنى إليها ذاهب مذهبا

يانود يارود الشباب التى

تطلع من أزرارها الكوكبا

يابأبى الشخص الذى لا أرى

أحلى على قلبى ولا أعذبا

إن قلت يوما إن عينى رأت

مشبهة لم أعد أن أكذبا

قالت : أرى قوديه قد نورا

دعابة توجب أن أدعبا

قلت له : ماباله إنه

قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجباً لقولى لها

وإنما قلت لكى تعجبا!

وهذا الشعر رواه ابن دحية وقال إن الغزال ارتجله بين يدي الملكة عندما سألته - مداعبة - عن عمره ، فرد عليها مداعبا كذلك : - عشرون سنة ، فأبدت دهشتها من الجواب ، فما كان منه إلا أن قال هذه الأبيات على البديهة!

ولسنا مطالبين بأن نصدق ما حيك من حكايات حول بعض شعر الغزال لكن الشئ المؤكد أننا نحس في شعره بذلك الوهج الناضر التلقائي ، الذي يواكب مسيرة الزمن - مهما طال الزمن - فلا يذبل أبدا ، وكان ابن دحية مصيبا عندما علق على الأبيات السابقة بقوله "إن هذا الشعر لو روى لعمر بن أبي ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس بن الأحنف ومن هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا إذ كان أندلسيا ، وإلا فماله أخمل وماحق مثله أن يهمل ؟"

وفي المقطوعات التي مرت يتبدى فن الغزال في قدرته على أن يرسم ببساطة المواقف ويحدد لها الشخصيات ويجعلها تنطق بما يلائم الموقف ، ويصنع في عفوية عجيبة "تراجيديا" مكتملة الأبعاد، ولسنا نعنى أن الشعر القصصي لم يكن معروفا قبله، ولكن ما نقصده أنه لم يكن بكل هذه الحيوية والتركيز والاتسجام بين المواقف والصور والجمل والإيقاع .

شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية (القرن الرابع وأوائل الخامس)

إلى أى حد تتبع قوة الأدب قوة الدولة التى يبرز فى زمنها؟ إن هذا التساؤل قد يبدو ضيئل الشأن أحيانا، لكنه - بالنسبة للأندلس - يستمد أهميته الخاصة، لأن "الدولة" هناك مرت بمراحل عجيبة من ارتفاع وانحدار وارتفاع، ولم تخضع هذه التحولات الحادة لمنطق واضح، ولم يخضع الأدب بدوره لهذا التآرجح بين القمة والحضيض...

ونحن مضطرون، فى هذا العرض الموجز، لأن نخفل شعراء لهم شأن مثل مؤمن بن سعيد، الملقب بـ "دعبل الأندلس" لكثرة شعره فى الهجاء، ومن جيد شعره قوله فى الدرهم:

تيمنى حبك يادرهم

فالقلب من برح الهوى مغرم

يامشبه النجم إذا ما بدا

منك استعارت حسنها الأنجم (١)

وأبضا محمد بن يحيى القلقاط، وعده الحجارى من نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء، وهو بدوره معدود ضمن الهجائين، وقد ذكر المقرئ أنه كان صديقا حميما لابن عبد ربه، ثم انقلبت المودة إلى خصام، وتهاجيا بعد عمر من المدائح والمودة!

(١) انظر عنه المقرب ج ١ ص ١٣٤ ومراجعته
السابق ج ١ ص ١١١ والمقرئ ج ٢ ص ١٩٩ الخ

ابن عبد ربه : (٢٤٦ - ٣٢٨)

ولابد ، على كل حال ، من وقفة أمام أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد ، ذلك الكتاب الموسوعى الضخم الذى صنع شهرته ، وربما قلل من شأنه باعتباره شاعرا ، ذلك أنه وجه معظم الاهتمام إلى هذا التصنيف البارع ، فضاع ابن عبد ربه الشاعر وسط ذلك .

وقد اختلفت الآراء حول هذا الشعر ، فقد عده د. أحمد ضيف من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء" وكلام الأستاذ أحمد أمين عنه يشبه ذلك ، فقد اعتبره مجرد صدى للمشاركة ، وأنه كان "يجتهد ما استطاع أن يأخذ معانيهم ويزيد عليها ويختار فى كل نوع من الشعر إماما من المشاركة، فطورا إمامه صريح الغوانى، وطورا أبو العتاهية وغيرهم ، ولم يتحرر تحورا كافيا ، ولم يصغ الى قلبه قط"^(١) بينما رفع آخرون من قدر شعره، ورأوا فى كثير مما وصل الينا منه صدقا فى الإحساس وقوة فى التعبير وقد كان القديما يرون فيه "حجة الأدب، وان له شعرا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهاه"^(٢) وعده ابن سعيد "إمام أهل الأدب بالمائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغرب كله"^(٣) وذكر الحميدى أن ديوانه يقع فى نيف وعشرين جزءا من جملة ما جمع للحكم بن عبدالله ،

(١) راجع أحمد ضيف فى : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩١ ، وأحمد أمين : ظهر الإسلام ، ١٢٤/٣ ، ويراجع بصورة خاصة: د. أحمد هيكى فى : الأدب الأندلسى ، ص

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان

(٣) عنوان المرفصات والمطربات ٥٦

لكن هذا الديوان ضاع مع ماتبده من تراث أهل الأندلس، ولم تبق منه إلا
أشتات متفرقات ، جمعت فيما أطلق عليه اسم "ديوان"^(١) وإذا أسقطنا
المنظومات (في التاريخ وفي العروض) فإن الشعر المتبقى لا يكاد يتجاوز الألف
بيت ومنها قوله :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر
مازلت أبكى حذار البين من كمد
حتى رثى لى فيك الريح والمطر
يابرده من حيا مزن على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقوله :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا
ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

(١) نشره محمد التولجي بعنوان : ديوان ابن عبد ربه ، بيروت ١٩٧٧ ، كما نشره د.
محمد رضوان الداية في بيروت أيضا سنة ١٩٧٩ ، وكان شعر ابن عبد ربه : جمع
وتحقيق ودراسة موضوعا لرسالة ماجستير أعدها بجامعة القاهرة موسى رزق ربحان ،
سنة ١٩٧١ ، وراجع عن ابن عبد ربه دراسة د. جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ط
٢ ، بيروت ١٩٧٩ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
ما بال قلبك لا يكون رقيقا؟

وعارض قصيدة صريع الغواني:

أديرا على الراح لا تشربا قبلى
ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى

بأبيات من جيد ما قال ، أولها:

أتقتلنى ظلما وتجدنى قتلى
وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذحلى ليس بى غير شادن
بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغار على قلبى فلما أتيته
أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت برد سلامها
ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جنتها صدت حياء بوجهها
فتهجرنى هجرا أحلى من الوصل

وإن حكمت جارت على بحكمها

ولكن ذاك الجور أشهى من العدل!

فلما تقدمت السن بابن عبيد ربه عزف عن هذا الضرب من الشعر الغزلي،
وكتب عددا من "المحصات" وهي قصائد في الزهد يكفر بها عما كان قد قاله
في الغزل والخمريات والمجون، ومن هذا النمط قوله :

أتلهو بين باطية وزير

وأنت من الهلاك على شفير

فيا من غره أمل طويل

يؤديه إلى أجل قصير

أتفرح والمنية كل يوم

ترك مكان قبرك في القبور

هي الدنيا فإن سرتك يوما

فإن الحزن عاقبة الغرور

ستسلب كل ما جمعت منها

كعارية ترد إلى المعير

وتعتاض اليقين من التظنى

ودار الحق من دار الغرور

ولنا أن نسلم بأن ابن عبيد ربه كان غزير الشعر ، متنوع الموضوعات وقد
عاش الرجل قرابة ثمانين سنة، شرقت فيها شهرته وغربت حتى إن الفتح بن
خاقان في "مطمح الأنفس" يسوق نقلا عن أحد الحجاج الأندلسيين (الخطيب أبي
الوليد بن عباد) أنه "حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف، ورأي

أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده فى مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ثم قال: انشدنى للمليح الأندلس ، ويعنى ابن عبد ربه فأنشده : (يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا) ... فلما أكمل إنشاده استعاده منها ، وقال : يا ابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوا!

وليس فيما سلم من ديوان ابن عبد ربه ما يجعله يحتل تلك المكانة المرموقة فى الشعر ، ولعل الرأى الصحيح أن (أسلوبه الشعرى بصفة عامة أصيل سهل التناول إلا أنه غير عميق الفكر ، ولا دقيق الصورة ولا خصب المعانى ، مع نغمة موسيقية وحاسة فنية تعطى الدارس دليلا على وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعرى وتنوع اتجاهاته"^(١) ، والملاحظ أن ابن عبد ربه اكثر من معارضة المشاركة ، ولعل هذا من مظاهر المحافظة؛ التى غلبت على آرائه وجعلته يسير فى ركاب مدرسة مسلم بن الوليد وأبى تمام.

ومن غريب الأمر أن اسمه ذكر فى "الذخيرة" وغيرها على اعتبار أنه من السباقين فى اختراع الموشحات ، وهذه قضية تناقش فى غير هذا المكان!

ابن دراج القسطلى (متنبى الأندلس) ٣٤٧هـ - ٤٢١هـ :

هو أحمد بن محمد بن العاصى ... ابن دراج ، وكنيته أبو عمر ، ينحدر من أسرة بربرية (من صنهاجة) ذات رئاسة فى قسطلة ، إلى حد أن هذه البلدة التى تقع الآن فى البرتغال تذكر أحيانا باسم قسطلة دراج ، ويشير د. محمود على مكى - ناشر ديوان ابن دراج ، وعليه عوكتنا فى هذه الصفحات ، إلى أن

(١) المطمح (ط. شوابكة) ص ٢٧٣

(٢) ع. زمامة: الشاعر الأندلسى ابن عبد ربه القرطبى فى : المورد المجلد السابع ١٩٧٧

أثر هذه "البربرية" غير واضح في حياة ابن دراج أو في شعره ، وتعليل ذلك أن آل ابن دراج دخلوا الأندلس مع الفتح فتأقلموا تماما حتى أصبحوا أندلسيين خالصين ، ولعل من أدلة ذلك أن ابن دراج لم يجد غضاظة في أن يهجو الزعيم البربري زيري بن عطية المغراوي عندما أعلن العصيان ضد المنصور العامري، وإذا كانت جل مدائحه انصرفت للمنصور وأبنائه فإن شعره بعدهم اتجه الي هؤلاء الملوك الذين كانوا علي عدااء مع البربر ، ولم يقصد أمراء البربر زمن ملوك الطوائف باستثناء الحمدونيين .

ولا يعرف شيء ذويال عن فترة النشأة في حياة ابن دراج، وأول شعر معروف له قاله وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، في مدح المنصور العامري، أي سنة ٣٨٢ وهي حافلة بالنضج والحيوية، مما يدل على أنها مسبقة بعشرات القصائد ، وأولها:

أضاء لها فجر النهى فنهاها

عن الدنف المضنى بحرٌ هواها

وضللها صبح جلا ليلة الدجي

وقد كان يهديها إلى دجاها

والقصيدة ، كما يذكر الحميدى، معارضة لأبي العلاء صاعد البغدادي، الشاعر اللغوي الذي هاجر إلى الأندلس ، وهي ، كما مر، في المديح، وهكذا يأتي معظم محتوى ديوان ابن دراج ، الذي لقبه الأندلسيون بـ "متنبي الأندلس" لا لأنه شاعر مدح فحسب، بل لأنه أيضاً شاعر فحل ينتمى إلى تلك المدرسة العريقة التي انبتت في المشرق شعراء من طراز أبي تمام والمتنبي ، وأبدعت في المغرب تلك الشاعرية الفذة التي أعطت جل طاقتها لفن المديح.

لكن الموضوع المدحى ، عند ابن دراج، لا يعدو أن يكون مجرد موضوع أو زاوية ضمن زوايا أخرى وعلى سبيل المثال فإن القصيدة السابقة تقع في

ثلاثة وخمسين بيتا (وابن دراج هو أول شاعر أندلسي يصل إلينا ديوانه ،
وليس منتخبات منه) استأثر منه المدح بثلاثة عشر بيتا بينما حفلت بوصف
أحوال الترحال وأهواله والحديث عن هموم الذات وآلام البعاد عن الأهل
والأحباب :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه

نفوسا شجاني بينها وشجاها

وربة خدر كالجمان دموعها

عزيز على قلبي شطوط نواها

وبنت ثمان مايزال يروعنى

على النأى تذكاري خفوق حشاها

وموقفها والبين قد جد جده

منوطا بحبلى عاتقى يداها

حتى يصل إلى مقطع المديح ليسكب فيه كل ما استطاع أن يضيفه على
المنصور العامرى من سجايا :

لدى ملك إحدى لواحظ طرفه

بعين الرضا حسب المنى وكفاها

هو الحاجب المنصور والملك الذى

سعى فتعالى جده فتناهى

سليل الملوك الصيد من سرو حمير

توسط فى الأحساب سمك ذراها

لباب معاليها وإنسان عينها

ويدر دياجيتها وشمس ضحاها

وأنت تقلب فى ديوانه الضخم الذى يقع فى أكثر من ستمائة صفحة فلا
تكاد تظفر بغير المدائح أما الغزل فهناك مقطعات قليلة منها قوله فيمن خانت
عهده :

سأمنع قلبى أن يحن اليك
وأنهى دموعى أن تفيض عليك
أغدرا ولم أغدر وخونا ولم أخن
لقد ضاع لى صدق الوفاء لديك
بفعلك عيب الحسن عندى وإن غدت
مهابة النقا والشمس مشتبهيك
أصد بوجهى عن سنا الشما طالعا
لأن صار منسوب الصفات إليك
وأصرف عن ذكراك سمعى ومنطقى
ولو نازعتنيها حمامة أيك
ولو عن لى ظبى القلا لاجتنبته
لتمثال عينيك وسالفتيك

وهذه القطعة مما قاله فى زمن الصبا، أما بعد ذلك العهد فإن غزله لا ينم
عن فورة مشاعر، والمخالصة أن الغزل نادر فى ديوانه، وعادة ما يأتى فى صدر
القوائد مثل قوله:

غرام ولاشكوى وعتب ولاعتبى
وشوق ولا لقايا وصبر ولا عقيبى
وكم حن معشوق وأعتب عاشق
وقلبك ما أقسى وقلبى ما أصبى

سأصدع أحناء الضلوع بزفرة
تطير إليك القلب لو أن لى قلبا
وأسبل آماق الدموع بعبرة
وإن حرمت منك المودة فى القربى^(١)
وقد تأتى مقطعات فى الوصف (ممزوجة عادة بالمديح) مثل قوله فى
الترجس:

شكلاان من راح وروضة نرجس
يتنازعان الشبه وسط المجلس
متباهيين تلونا بتلون
متباريين تنفسا بتنفس
لكن هذى بين أحشاء الفتى
نار وهذا جنة للأنفس
فكانها من حد سيفك تلتظى
وكانه من طيب خلقك يكتسى

ولكن شاعرية ابن دراج فى مجموع شعره المدحى أقوى مما تتبدى فى هذه
المقطوعات الوصفية والتي لا يستبعد أن تكون قد قيلت ارتجالا، ومن ثم خلت
من العمق ومن أصالة التعبير^(٢)

ولكن كل هذه موضوعات ثانوية عنده، لأن الرجل قد فنى فى شعر

(١) راجع أيضا مرثية أخرى فى الديوان ص ١١٩

(٢) راجع الديوان ص ٣٥ وما بعدها (فى روضة سوسن، فى البهار، فى النرجس ، فى
الخبرى ، فى الورد ، فى السوسن وفى النيلوفر)

المديح إلى أبعد مدى ، ولولا أن لهذه المدائح قيمة تاريخية كبرى لضعف شأن ابن دراج، إذ إن كثيرا منها اتصل ببطولات المنصور العامري وحملاته الموفقة على ممالك إسبانيا النصرانية، وأرخ لهذه الفترة العجيبة من عمر "قرطبة" حاضرة الخلافة، وهي تتحول من حاضرة لدولة إسلامية مترامية الأطراف إلى مجرد إمارة صغيرة بعد أن انفرط عقد الأندلس، وأقبل ملوك "الطوائف" يصلون ويجولون ... وأما من حيث الفن فيحسبنا أن نشير إلى قوله :

دعى غزوات المستضام تسيير

فتنجد في عرض الفلا وتغور

لعل بما أشجاك من لوعة النوى

يعز ذليل أو يفك أسير

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى

وأن بيوت العاجزين قبور

ولم تزجري طير السرى بحروفها

فتنبئك إن/فهي سرور

تخوفني طول السفار وإنه

لتقبيل كف العامري سفير

دعيني أرد ماء المفاوز أجنا

إلى حيث ماء المكرمات نعيم

فإن خطيرات المهالك ضمن

لراكبها أن الجزاء خطير

وهي قصيدة نسجت على غرار قوله أبي نواس

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فكيف جاز لابن دراج أن يعارض واحدة من أجمل ما كتب في الشعر
العربي علي بن النعمان^(١)، الواقع أن شاعرنا حاول أن يقدم " تفصيلات"
لموقف الوداع، لم يتطرق إليها أبو نواس، فحالفه التوفيق وهو يصف فراق
الزوجة وطفله الوليد واعنصار الوجدان ولوعة الأسي :

ولما تدانت للوداع وقد هفا

بصبري منها أنة وزفير

تناشدني عهد المودة والهوى

وفي المهد مبعوم النداء صغير

عبي بمرجوع الخطاب ولفظه

بموقع أهواء النفوس خبير

وطار جناح الشوق بي وهفت بها

جوانح من ذعر الفراق تطير

عصيت شفيح النفس فيه وقادني

رواح لتدآب السرى ويكور

واستطاع ابن دراج في بعض مقاطع هذه الرائية أن يصل إلى درجة رفيعة
من إضفاء الحيوية على الأبيات وتقديم لوحات فريدة في صفائها وروعة
صورها:

ولو بصرت بي والسرى جل عزمتي

وجرسي لجنان الفلاة سمير

(١) يذكر ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ١٣٥ ط إحسان عباس أن "المنصور بن أبي
عامر أمره أن يعارض قصيدة أبي نواس.."

وأعتسف المومة فى غسق الدجى
وللأسد فى غيل الغياض زثير
وقد حومت زهر النجوم كأنها
كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
كؤوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها
على مفرق الليل البهيم قثير
وثاقب عزمى والظلام مروع
وقد غض أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى
وأنى بعطف العامرى جدير

والقصيدة طويلة نسبيًا (وعادة ما يطيل ابن دراج فى مدائحه التى يتجاوز بعضها المائة بيت) ، ومع ذلك فإنها لوحات تترى وآهات تتفجر عن صدر مكلوم ومعان تنساب فى رصانة وعمق فترسم صورة لملك اجتمعت فيه كل صفات النبيل والفروسية والعدل والجود ، وتخلب عبارة ابن دراج اللب بمتانة سبكها واستيعابها الدقيق للمعنى ، وقد يستعمل فيها الغريب أحيانًا - على نحو ما كان يصنع أبو تمام أو المتنبى - لكنه الغريب الذى يتفق والمعنى الذى يريد ، مثل قوله فى وصف أهوال الترحال:

ولو شاهدتنى والصواخذ تلتظى
على ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات إذا سطا
على حر وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهى بوارح
وأستوطنى الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عيش الجبان تلون
وللذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من الضيم جازع
وأنى على مض الخطوب صبور

والحق أن ديوان ابن دراج يأتى حافلا بأمثال هذه الأبيات التى بلغت ذروة التناسق بين المعنى والأداء مما جعله يعد من بين "الشعراء الفحول"، ونقل ابن بسام فى "الذخيرة" عن ابن حيان أنه كان ؛سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين " كما نقل عن ابن شهيد قوله "والفرق بين أبى عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وماتراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بخره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه فى الوصف وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره"^(١) وهذا قليل من كثير مما قيل فى هذا الشاعر المبدع الكبير^(٢)

(١) الذخيرة ط. إحسان عباس ج١ من القسم الاول ص ٦١
(٢) راجع عنه أيضا : الجذوة ١.٢ ، والمغرب ج ٢ ص ٦٠ بيمة الدهر ج٢ ص ١.٤ ،
الوافى ج٨ ص ٤٩ الخ

يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمرو)،

هذا شاعر أندلسى من طبقة الفحول ، أوتى فى زمنه القسط الأوفر من الشهرة، ولكنه - فى عصرنا الحديث - لم ينل إلا مكانة ثانوية بسبب ضياع ديوانه، أو بالأحرى دواوينه، بحسب ماسترى ...

وفى اسم "الرمادى" آراء كبيرة، لمجملها فيما يأتى:

- يقول ابن بشكوال فى "الصلة":

"كان يلقب أبى جنيش فنقل إلى الرمادى"

- ويقول الحميدى إن المرجح أن أحد آباءه من رمادة، موضع بالمغرب، وأيد ابن خلكان هذا الرأى ونقل عن باقوت فى "المشترك وضعا والمختلف صقعا" أن هناك عشرة مواضع تسمى الرمادة، منها رمادة المغرب التى ينسب لها شاعرنا

- أما ابن سعيد فنقل عن الحجارى أن الرمادى من قرى شلب

- وقد ذكر مؤرخ الأندلس ابن حيان اسمه فى أكثر من موضع ، وسماه فى مرة الشاعر "الرمادى" (وفى بعض) آخر: يوسف بن هارون البطلبيوسى، الشاعر المعروف بأبى جنيش واختلفوا فى معنى (أبى جنيش) "وفى رأى جونثالث (بلانثيا، مؤلف "تاريخ الفكر الأندلسى"، أن الرمادى) لا تعدو أن تكون الصيغة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة (أبو جنيش) إذ إن الجنيش Cenisa بالإسبانية تعنى الرماد وكان نعتة بهذه اللغة يكون El-Cenicento أما هنرى بيريس فرجح أن يكون منشأ التسمية امتهانه تجارة الرماد.

- مما يضاف إلى مشكلة الاسم قول ابن سناء الملك عن الخرجة فى

الموشحة : وقد تكون المخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمى ~~منها~~ نفعيا ورماديا زليا" وفسر "الرمادى" هنا بالشعبي ...

- ومع هذا كله فالمتفق عليه أن شاعرنا عربى الأرومة، إذ إنه ينسب إلى كندة...

وقد ولد الرمادى فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وتوفى سنة ٤٠٣ هـ أى أنه عاصر فترة اضطراب كيان الدولة الأموية بالأندلس ، ثم ارتقائها للذروة بعد أن دان الأمر لعبد الرحمن الناصر ، وقضى على الفتن وعم الأمن والرخاء ، وقد شرع الناصر - سنة ٣٢٥ فى بناء قصر "الزهراء" على مقربة من قرطبة، وفى زمنه وفد أبو علي القالى الى الأندلس ، سنة ٣٠٣ هـ فاحتفى به أهل البلاد أيما احتفاء ، وكتب الرمادى فيه واحدة من أشهر قصائده استهلها بمقطع غزلى يقول فيه :

من حاكم بينى وبين عدولى

الشجو شجوى والعويل عويلى

أقصر فما دين الهوى كفر ولا

أعتد لومك لى من التنزيل

عجبا لقوم لم تكن أذهانهم

لهوى ولا أجسادهم لنحول

دقت معانى الحب عن أفهامهم

فتأولوه بأقبح التأويل

فى أى جارحة أصون معذبى

سلمت من التعذيب والتنكيل

ان قلت فى عينى فشم مدامعى

أو قلت فى قلبى فشم غليلى

لكن جعلت له المسامح مسكنا

وحجبتة عن عدل كل عدول

وبعد هذا المقطع الغزلي يأتي مقطع آخر في الحديث عن الترحال ووصف
جواده والحديث عن الصيد والرياض ونحو ذلك مما ترددت أصداؤه طويلا في
الشعر العربي حتى يفضى به القول إلى القالى:

قسه إلى الأعراب تعلم أنه

أولى من الأعراب بالفضل

حازت قبائلهم لغات جمعت

فيهم وحاز لغات كل قبيل

فالشرق خال بعده، فكأنما

نزل الخراب بربعه المأهول

جمعوا بغيبته وموت شيوخه

عنهم ولما يظفروا ببديل

مذ جاءهم وهم بليل همومهم

منه فصاروا فى دجى موصول

فكأنه شمس بدت فى غربنا

وتغربت فى شرقهم بأقول

ياسيدى هذا ثنائى لم أقل

زورا ولا عرضت بالتنويل

من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ

لم أرج غير القرب فى تنويلى

ولاغرابية ، والقصيدة تتدفق بهذه القوة الآسرة الساحرة ، أن توليها

المصادر قسطا موفورا من الاهتمام، فنرى اقتباسات منها فى عشرات الكتب
المشرقية مثل اليتيمة والوفيات والوفى ومسالك الأمصار والشذرات ، وفى
العديد من المؤلفات والمجموعات الأندلسية والمغربية مثل المطمح والمعجب والنفح
ورفع الحجب^(١) الخ ..

ومما يذكر عن مرحلة شباب الرمادى أنه كان عكوقا على اللهو ، وسوف
يقوده ذلك إلى السجن - فى عهد الحكم (المنتصر) - وفى "المقتبس" أنهم
قبضوا على كثير من المجاهرين بالمجون وأودعوا السجن "فكان ممن ألحف الطلب
لهم والبحث عليه من مستخفيهم يوسف بن هارون البظليوسى الشاعر المعروف
بأبى جنيش زعيمهم، غاب مدة والطلب له حثيث، والنداء عليه متصل ، فلما
أيقن أن البقاع لا تطيقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستتبسلا
لحتفه"

وفى بقية الخبر أن الشاعر اتجه إلى السجن بالزهراء فأسلم نفسه وفى فى
محبسه حتى لان له الخليفة فأطلق سراحه بعد أشهر ، وكان ذلك سنة ٣٦١ ،
الا أنه لم ينعم بالحرية طويلا إذ سرعان ما قبض عليه ثانية بتهمة الإساءة
للخليفة إذ شاع أنه هجاه بقصيدة - أو قصائد - لم يسلم منها إلا بيت يتيم
يقول فيه:

يولى ويعزل من يومه

فلا ذا يتم ولا ذا يتم

والمرجح أن مقامه طال فى السجن بدليل ماذكروا من أنه "عمل فى
السجن كتابا سماه: كتاب الطير، فى أجزاء ، وكله من شعره، وصف فيه كل

(١) أنظر ملاحظات د. أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص
٢٩٢ حول هذه القصيدة

طائر معروف ، وذكر خواصه وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام ، مستشفعا إلى أبيه في إطلاقه" ، وقد ضاع كتاب الطير هذا ، كما ضاع ديوان الشاعر ولم يسلم من شعره إلا قدر محدود - نحو مائه - صفحة ، (جمعها ماهر زهير جرار) لا توجد فيه عن الطير إلا بضع مقطوعات ، منها قوله في حمامة:

أذات الطوق في التغريد أشهى

إلى أذنى من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع

بنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا ونحرا

كما خر الفجيع على الضريح^(١)

وبيتان في حمامة هما :

أحمامة فوق الأراكة بينى

بحياة من أبكاك ما أبكاك؟

أما أنا فبكيت من حرق الهوى

وفراق من أهوى . أنت كذاك؟

وأما السجن فإن لدينا له أكثر من نص مما كتبه وهو معزول عن الدنيا ، بعيد عما اعتاد عليه من لهو وخرم ونزق ، منها قصيدته "لك الأمن من شجو يزيد تشوقى" ، وفيها يقول:

(١) يضم كتاب التشبيهات ثلاثة عشر بيتا في البازي.

أعيني إن كانت لدمعك فضلة
تثبت صبرى ساعة فتدلقى
فلو ساعدت قالت أمن قلة الأسى
تبقت دموعى أم من البحر تستقى

وله من غيرها:

نسانلها هلا كفاك نحوله
ونصبتة أو دمعته وهموله
تكنفه همان : شجو وضبوّة
فبلغ واشيه المنى وعذوله
فإن يستبن فى وجهه هم سجنه
فقد غاب فى الأحشاء عنك دخيله
معنى بكتمان الحبيب وحيه
فان يقتل الكتمان فهو قتيله
وقد راعنى سجن فشط ولودنا

من السجن لم يسهل على دخوله
والذى يطالع فى شعر الرمادى - أو بالأحرى ماوصل منه - يجد فيه
مقطوعات كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الزهور ومناظر الطبيعة ، ولكنه لا يجد
أثرا واضحا لمن اتصل بهم من خلفاء وحجاب وأمرء وحجاب وتحدثنا كتب
التاريخ إنه "كان مختصا بأبى الحسن المصطفى منضويا إليه" كما يقول المراكشى
فى "المعجب" ، وقد تمت نكبة المصطفى سنة ٣٦٧هـ وقبض على السلطة غريمه
ابن أبى عامر (المنصور العامري) وعندئذ يتحول إليه الرمادى ليصبح من مداحه
- كما يقول ابن سعيد - ومع ذلك فإننا لا نملك شيئا مما قاله فى المنصور ،

الذى مر بنا أمر بأسه وحنكته وتفانيه فى الغزو والجهاد، والمراكشى فى "المعجب"
يتحدث عن هجاء للرمادى فى المنصور (بتأثير من المصحفى) فلما فقد هذا
نفوده تعرض شاعرنا للمعقاب والنفى، ثم بدلت العقوبة إلى الاكتفاء بأن نودى
بمقاطعته "فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام
المنصور"

وهذا الخبر ينقضه أن نكبة المصحفى كانت سنة ٣٦٧، فى حين إن
الرمادى امتدت به السن إلى أن شهد الفتنة البربرية، أى أنه عاش سنوات بعد
وفاة المنصور العامرى، ومن غير المتصور أنه عاش منزويا عن الناس كل هذه
المدة.

والدارسون لفن الرمادى يرون أن شعره انصبت فيه "ألوان الحياة
الأندلسية، فشعره وثيقة حضارية هامة، إذ إنه مع تبدل الحياة تبدلت طبيعة
الشعر فالبيئة الأندلسية تمثل أجواء جديدة من الاستسلام والاغراء، وبوجود
طبقة الجوارى والغلمان الصقالبة والبشكنس والنساء الشقراوات تبدلت عواطف
الشعراء، وتعقدت تصورات اللذة، فتعقد تبعاً لذلك التصوير الشعرى،
وأصبحت اللذة غاية بذاتها ولم تعد متعة عارضة، فاقتترنت بجمال الطبيعة
وبالغناء والموسيقى والخمر. ثم إن الانكسار الحاصل فى الهوية الاجتماعية من
حيث توزع المال والسلطة من جهة، وسلطة الفقهاء من جهة أخرى التى تصطدم
دائماً مع هذه الأجواء الجديدة، كل هذا عمق الانكسار فى الهوية الفردية وولد
الألم الغامر الذى لا يتبته إلا اللذة المتواصلة، فتصبح الحياة فراديس مصطنعة

(١) انظر أيضاً مقطوعة قالها فى السجن ص ١٧ من مجموعة شعر الرمادى أولها:

ويلدع قلبى حرقه دونها الجمر

حبيسك بمن أتلف الحب قلبه

وأيضاً قصيدته:

فما الخطب أيضاً فى امتناع خياله؟

هبوا أن سجنى مانع من وصاله

يبتدعها الشاعر، فالرمادى جمع فى شعره هذه الأمور ، فهو يمثل التمرد على
الفقهاء من جهة، وهذا التهافت على اللذة من جهة أخرى" (١)

ولا نعرف أى لقب شعرى مشرقى أطلق على الرمادى ، وربما كان أقرب
الأسماء اليه اسم أبى نواس، فقد كان صنوه فى التغنى بالخمر ، واذا كانت
معظم قصائده فيها قد فقدت فبحسبنا أن قسطا لابأس به من الرائية "بخطب
الشاريين" قد سلم من الضياع ، وكان الرمادى كتبها عندما فكر الحكم المستنصر
فى استئصال شجرة العنب من الأندلس وأمر بإراقة الخمر والضرب بيد من حديد
على شاريها ، فراح يتفجع ويتوجع بقوله :

بخطب الشارين يضيق صدرى

وترمضني بليتهم لعمري

وهل هم غير عشاق أصيبوا

بفقد حبات ومنوا بهجر

وضمنها بيت العرجى الشهير :

"أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغرى!"

وأىضا من الظواهر "النواسية" - أو فنقل الأبيقورية - عنده ذلك التفانى
فى عشق الحياة والابتهاج بالطبيعة من أىضا ذلك التعلق بالغلما، على نحو
مايكشف عنه قوله فى غلام ألثغ:

لا الرأء تطمع فى الوصال ولا أنا

الهجر يجمعنا فنحن سواء

(١) شعر الرمادى ، ص ٤١

فاذا خلوت كتبتها فى راحتى
وبكىت منتحبا أنا والراءء
والإكثار من الحديث عن مفاتن النساء . ولكن من غير فحش وأحاديث
الهوى . مثل قوله :

وانى لأغضى الطرف عنك جلالة
وخوفا على خديك من لحظاتى
ولو أننى أهملت عينى بأن ترى
سناك لحالت دونها عبراتى
رأيت وشاة الكاشحين أباعدا
ولكن دمعى من عديد وشاتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن
اعنيك فى بشى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنيتى
إذا حلت عنى فى يديه وفاتى

والنصوص التى مرت تكشف عن خصائص الرمادى ، الذى كان ينتمى
بدوره لمدرسة المحدثين ، إلا أنه كان فى الوقت ذاته بصيرا بالأدوات الفنية
التقليدية على نحو ما تكشف عنها مدحته فى أبى على القالى، حتى إذا مامال
إلى موضوعات الوصف والتعبير عن الذات لجأ إلى الجملة البسيطة التى
تكسب جمالها من حيوية الصور ، والحق أن الرمادى لم يكن يعنى فى الغوص
تنقيبا - متعمدا - عن المعنى الجديد بل كان يتدفق هذا تدفقا طيعا بين
يديه، فشاعرنا كان شاعر طبع ، إلا أنه كان يحرص فى الوقت ذاته على أن

يجعل عبارته مشرقة وصوره متألقه، لا يحاكي فيها أحدا

ويلحظ القارئ في كثير من مقطوعات الرمادى مواقف ذات أبعاد درامية
محددة مركزة على نحو يذكر بمنهج الغزال ، إلا أن الرمادى كان أكثر صقلا
لعبارته وتجويد الصورة ، من قبيل قوله:

لما بدا فى لآزور

دى الحرير وقد بهر

كبرت من فرط الجمال

ل وقلت : ما هذا بشر

فأجابنى لا تنكروا

ثوب السماء على القمر !

والخلاصة إن إبداع النص يتمثل عند الرمادى فى "الصورة" بينما يتألق
عند الغزال فى "الموقف" ، وبينهما ولا شك أواصر قوامها غلبة الروح "الأندلسية"
الفنية على شعرهما .

عصر ملوك الطوائف
(من شعراء القرن الخامس الهجرى)
ابن زيدون

إذا ذكرت الأندلس فإن صوراً كثيرة تتداعى إلى النفس من خلال
ذكراها، يأتى من بينها ولا شك اسم الشاعر العبقري ابن زيدون .

وقد ارتبط اسم هذا الشاعر بعصر ملوك الطوائف خاصة فى قرطبة
واشبيلية، وكان طرفاً فيما جدّ على العصر من أحداث متلاحقة انتهت بسقوط
الخلافة الأموية واختيار أهل قرطبة لأبى الحزم بن جمهور أميراً أو حاكماً لقرطبة
وما حولها، بينما استولى بنو عباد على إشبيلية، واشتعلت الفتى بين الأقاليم
وإزداد نفوذ النصارى وضغطهم من كل اتجاه .

وشاعرنا (أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون) ينحدر من بنى
مخزوم ، وهم بطن من لؤى بن غالب، أى أنه كان قرش العنصر، وكان لأسرته
شأن فى قرطبة، على نحو ما ذكر ابن حيان من أنه كان "من أبناء وجوه الفقهاء
بقرطبة أيام الجماعة والفتنة"، والثابت أن مولده كان بالرصافة، على مقربة من
قرطبة، سنة ٣٩٤هـ، وأنه نشأ محاطاً بالرعاية والتثقيف من قبل أبيه ثم أساتذة
ذلك العصر ومنهم أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الذى يوصف بأنه
كان "رجلاً جيد الدين ، حسن العقل، متصاوفاً ، لين العريكة، واسع الخلق، مع
نبله وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب على
حد تعبير ابن بشكوال صاحب الصلة .

وكان ابن زيدون^(١) فى الثامنة والعشرين من عمره عندما تم اتفاق أهل قرطبة على زعامة أبى الحزم بن جهور ، والمرجح أنه قام بنصيب وافر فى هذا الأمر حتى أن الفتاح بن خاقان يصفه بأنه "زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجمهورية"، وهيات له هذه الزعامة أن يحتل منصب الوزارة ، وقد نقل ابن بسام عن أبى مروان بن حيان قوله :

"وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جهور، من رجال دولته فقال: ونوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف والشاعر البديع الوصف والرصف أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة النبهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلطة وقوة المعارضة والافتتان فى المعرفة . وقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فاحسن التصرف فى ذلك، وغلب على قلوب الملوك"^(٢)

ومع ذلك فإن أبا الحزم بن جهور كان تخوف فى قرارة نفسه من ابن زيدون ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، كان ينقم عليه انغماسه فى حياة اللهو واقتران اسمه باسم ولادة بنت المستكفى (وسنعود إلى ذلك بعد قليل) من خلال قصة حب عاصفة ودفعه طبعه الحاد، وثقته المفرطة فى نفسه، لأن يحط من قدر ابن القلاس وابن عبدوس (منافسه فى حب ولادة) وكان العصر عصر فتن وانقلابات ومن ثم دبرت له تهمة اغتصاب عقار وحوكم محاكمة ظالمة أفضت به على عجلة إلى السجن ، حيث مكث فيه قرابة خمسمائة يوم . ويرى بعض

(١) راجع عنه ابن بسام فى الذخيرة وكتاب ابن نباتة : سرح العيون والصفدى فى : تمام المتون ، وابن سعيد فى : المغرب (ج١ ص ٦٣) والحميدى فى الجذوة ص ١٢١ وابن خاقان فى القلائد ص ٧٠ وابن دحية فى المطرب ص ١٦٦ الخ ..

وراجع مقدمة ديوانه - نشر على عبد العظيم - القاهرة ودراسة (وهى فى الأصل رسالة للماجستير) نشرت بالقاهرة سنة ١٩٥٥ فى ٥٨٧ ص فضلا عن دراسات أخرى متفرقة

(٢) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول ١ ط إحصان عباس) ص ٣٣٧

الباحثين أن الشاعر أودع السجن مرتين، لكن الرأي الصائب أنه "لم يسجن إلا مرة واحدة في عهد أبي الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١ هـ ، وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء - وهو الذى نيط به أمر محاكمته - لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢ هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد الذى توفى لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣ ، ومن هنا نستطيع ان نحزم بان الشاعر سجن فى الفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ (١).

وقد فر ابن زيدون من السجن بقرطبة، واتجه إلى إشبيلية لاثنا بآل ابن عباد، أعداء ابن جهور، وأمدته فترة السجن ثم الاختفاء والهرب بطائفة من فرائد ماكتب فى السجن والاعتراب والاحساس بالضياح ، مثل قصيدته :

خليلى لا فطر يسر ولا أضحى

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وفىها يتحدث عن قرطبة وأحيائها ومعالمها حديث المتيم المشوق، حتى ينتهى إلى الزهراء فيلهج لسانه :

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح

تقصى تنائيبها مدامعه نوحا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها

فخلنا العشاء الجون أثناءها صباحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه

إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

(١) على عبد العظيم ، مقدمة ديوان ابن زيدان ، ص ٤٣

وكذلك أرجوزته :

يادمع صب ماشئت أن تصوبا

ويافؤادى آن أن تذوبا

إن الرزايا أصبحت ضروبا

لم أر لى فى أهلها ضربيا

قد ملأ الشوق الحشا ندوبا

فى الغرب إذ رحى به غربيا

وأىضا هذه المقطوعة التى كتبها على غرار قصيدة للمتنبى واتخذ من
مطلعها "خاتمة" لأبياته:

هل تذكرون غربيا عادة شجن

- من ذكركم - وجفا أجفانه الوسن

يخفى لواعجه والشوق يفضحه

فقد تساوى - لديه - السر والعلن

ياويلتاه ، أبقى فى جوانحه

فؤاده ، وهو بالأطلال مرتهن

وأرق العين -والظلماء عاكفة-

ورقاء قد شفها - إذ شفى - حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها

وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن

ياهل أجالس أقواما أحبهم

كنا وكانوا - على عهد - فقد ضغنوا

أو تحفظون عهدا لا أضيعها
إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عاد لكم عيد فرب فتى
بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وأفردته الليالى من أحبته
قبات ينشدها مما جنى الزمن:
" بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن "

ولم يكف ابن زيدون طيلة هذه المدة عن محاولة التوسل لابن جهور لكي يعفو عنه ، حتى إذا ما مات أبو الحزم وتولى من بعده ابنه أبو الوليد تبدل الحال، إذ كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين منذ أمد بعيد، وهكذا جاءت العودة المظفرة إلي قرطبة "ورفع - أبو الوليد - مكانته ، ونوه به ، وأسنى خطته واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، وبذا يمكن القول بأن ابن زيدون أصبح - مرة أخرى - " وزير خارجية" قرطبة والمستشار الأول لأميرها الجديدة ولم يخل الأمر من أزمات توالى بين الرجلين ، بفعل المؤامرات والأحقاد وتقلب النفوس وهذا كله سيدفع بالشاعر إلى الرحيل مرة ثانية إلى إشبيلية، واستقبل من أميرها الداهية المعتضد بن عباد أحسن استقبال، وأصبح من وزرائه المقربين ومستشاريه الأثيرين، وتلقب بـ "ذى الوزارتين" كناية عن قيمه بمهام المستشار والوزير ثم استطاع بعد ذلك أن يستحوذ على منصب "الكتابة" الذى أتاح له الاطلاع على كل أسرار الدولة فكأنه أصبح - بتعبير العصر الحديث - رئيس الوزراء فى إشبيلية

وكانت فى المعتضد غلظة وسرعة فتك وكثرة تقلب ، ومع ذلك نجح ابن زيدون فى أن ينجو من بطشه ويحافظ على مكانته ويتخلص من مناوئيه - مثل ابن حصن كاتب المعتضد ، وأيضاً ابن عبد البر .

ثم آل عرش إشبيلية للمعتضد سنة ٤٦١ ، وكان شاعراً بل وتلميذا لابن زيدون ، ولذا لم تفلح كل المحاولات التى سعت لإحداث الواقعة بينهما ، بل ان تطور الأمور فى الأندلس زاد من التقارب بين الرجلين ، إذ تطلع المعتضد للاستيلاء على قرطبة ومن أدرى بقرطبة وأحوالها من ابن زيدون ؟ ، حتى إذا ما تحقق النصر ازداد شأن الشاعر عند المعتضد بن عباد ، خاصة وأن أهل قرطبة كانوا لا يعصون له أمراً ، ويرون فيه "زعيمهم الروحى" ، والمعبر عن أمانيتهم ومجدهم وكيانهم .

ثم وقعت الفتنة فى إشبيلية ، والمعتضد فى قرطبة ، فسعى لاختمادها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه ، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش ، لما كان يعهده فيه من ذكاء وفطنة ، وما كان يعرفه من حب أهل إشبيلية له ، على أن سفر ابن زيدون كان مكيدة من طرف خصوم الشاعر - وعلى رأسهم ابن مرتين قائد الجيوش فى قرطبة والوزير ابن عمار - ليخلوا لهم الجو هناك ، ويتخلصوا من الرجل الذى كان يحظى بأعلى مكانة عند المعتضد وعند أهل المدينة .

وإذا كان جيوش المعتضد قد نجحت فى استرداد إشبيلية ، فإن الوزير الشاعر كان قد أجهد بفعل الشيوخوخة وكثرة ما بذل من جهد ، ومن ثم يودع الحياة بعد ذلك بزمان وجيز - فى رجب سنة ٤٦٣ هـ ، وكان لموته رنة أسى فى نفوس الناس بالأندلس ، خاصة فى مدينته قرطبة .

ولادة وابن زيدون :

إن لقصة الحب العاصف بين ابن زيدون وولادة أثرا عميقا فى حياة الشاعر وفى آثاره الأدبية ، ومن ثم نتحدث عنها هنا على حدة ، خاصة وانها شغلت الدارسين والأدباء فى القديم والحديث وخلفت أصداء شبيهة بما كان من حكايات وأساطير حول عنتر وعبلة، وليلى والمجنون ، وجميل وبثينة وكثير وعزة الخ

أما ابن زيدون فقد عرفنا شيئا من أمره : شاعرا ووزيرا ورجل دولة من الطراز الأول ، وشخصية اجتماعية مرموقة فتن بها أهل قرطبة ، ورأوا فيها تجسيما حيا لكل مالمدينتهم العريقة من حضارة و "ارستوقراطية" واعتداد بالذات وطموح وإقبال على الحياة .

وأما هى : ولادة ، فإنها أميرة وابنة خليفة . وإن كان أبوها عادة مايوصف بأنه ساقط الهممة دنىء النفس ، وهو أحد الذين أسهموا فى القضاء على البيت الأموى بطيشه وضعف همته وعكوفه على الشهوات، وكانت ولادة ، على النقيض منه ، مشهورة بأنها - على حد تعبير ابن بسام :-

"كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوايد ، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لآحرار المصر، وفناؤها ملعبا لحياد النظر والنثر .. إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب^(١) لكن ابن بسام

(١) الذخيرة (ط. إحسان عباس) المجلد الثانى من القسم الزول، ص ٤٢٩ ومن الأعمال
|| نية والمسرحية حول الموضوع مسرحية لإبراهيم الأحذب وفصل قصير تمثيلى لأحمد
رامى بعنوان: غرام الشعراء ، ومسرحية شعرية لعلى عبد العظيم بعنوان : ولادة وأخرى
لحسين سراج (غرام ولادة) وفاروق جويدة (الوزير العاشق) ونذير العظمة (سيزيف) ورواية
نثرية لعلى الجارم :هاتف من الأندلس، الخ ..

لا يكتفى بهذا الجانب "طاهر الأثواب" بل يعرج على كونها "اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها - كتبت - زعموا - على أحد عاتقى ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشى مشيتى وأتبه تيهيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى

وأعطى قبلى من يشتهيها

وفى كتب الأدب؛ الأندلسى ، وعلي رأسها "الذخيرة" أطراف من حكاية الحب التى جمعت بينهما ، وكان ذلك أيام شباب الشاعر وفى فترة إقبال الحياة عليه ، ووفقا لروايته فإنها هى التى كتبت له :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى

فإنى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك مالوكان للبدر مابدا

وبالليل ماأدجى وبالنجم لم يسر

وأنه أنشدها فى إثر اللقاء مقطوعة من أربعة أبيات بقول فيها :

ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره مااستودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم

بت أشكو قصر الليل معك

والأبيات ترد بالفعل فى الديوان ، ولكنها ليست بالضرورة مما قيل فى أعقاب "اللقاء الأول " كما قد يوحى نص "الذخيرة" ، والمهم أننا نجد عنده تعلقاً "من نوع ما" بولادة ، يرتدى أحياناً قناع العذرية ، ويجمع أحياناً جموحاً حسياً ، وكان يقع بينهما ما يقع بين المحبين من غيرة وخصام وقطيعة أيضاً ، وقد تحركت الغيرة فى نفس ابن زيدون ، عندما وجد أن غريمه ابن عبدوس يزداد منها تقرباً ومودة ، فعمد الشاعر إلى هجائه بالرسالة الهزلية؛ وبعث بالنص لولادة كما هجا غريمه ابن القلاس بأقذع الهجاء ، ولم يستطع مع ذلك أن يجعلها تؤثره بمشاعرها (وفى الذخيرة أنها حنقت عليه لأنها توهمت أنه يميل إلى جاريتها عتبة) ثم تطور الحال به إلى أن سجن ، (ولعل لابن عبدوس يدا فى مسألة السجن هذه) وفر منه إلى إشبيلية ، حيث بعث إليها بقصيدته الفريدة الغريبة:

أضحى التنائى بديلاً من تدائنا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هلا وقد حان صبح البين صبحنا

حين فقام بنا لى ناعينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم

حزنا مع الدهر لا يبلى وبيلينا

أن الزمان الذى مازال يضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نعص فقال الدهر آمينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

والقصيدة تضى كلها على هذا النمط العذب الرقراق، (الذي يذكر بقصائد الحب الخالدة مثل لامارتين في بحيرته وغير ذلك من روائع الشعر "الرومانتيكى") وفيها دلائل حية على صدق الشاعر، ومع ذلك فإن قصة الحب هذه ما لبثت أن تهاوت لأسباب أفاضت فيها كتب التاريخ والأدب، من أهمها أن ولادة كانت مريضة نفسيا، وأنها كانت تعاني من ميل حاد لتعذيب الآخرين - وهو ما يعرف الآن بالسادية - والرغبة في تلويث سمعتهم، وقد يستدل على ذلك من قول العمرى: وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد، وفي نظر نيكل أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادى الطبيعى الذى يذكرنا بجورج صائد، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة^(١)، ولكن هذا الحب، على كل حال، جعل ابن زيدون يصدق بقصائد خالد مثل "أضحى التنائى" ومثل:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله

كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم

كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت

بتنا لها - حين نام الدهور سراقا

(١) راجع على عبد العظيم، مقدمة الديوان، ص ٣٩

كل بهيج لنا ذكرى تشوقنا
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركمو
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

ألوان أخرى من الفن :

دارت موضوعات الشعر عند ابن زيدون حول موضوعات الغزل والوصف والموضوعات التقليدية من مديح ورتاء وهجاء وقد عرفنا أنه شاعر حب من الطراز الأول - وسنكتفى بما قلناه عن حبه لولادة ، وهي قصائد تخللتها عادة لوحات وصفية متألقة (انظر مثلا مستهل قافيته : إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا) ، وأما جانب المدائح فإن الناس عادة ما يتجاهلونه لأن شهرته في الشعر العاطفي ، لكن المؤرخين المدققين عرفوا له قوة باعه في أكثر من فن ، على نحو ما ترجم ذلك عبارة المراكشي من أن ابن زيدون "كان إذا نسب أنسك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرئ القيس " ، والحق أن مدائح الشاعر تأتي رصينة رنانة طبيعة، فيها نفثات "بحترية" لاتنفى عنها الأصالة، وتدور حول ماهو مألوف من المعاني المدحية، لكن ابن زيدون بث في جنباتها من حرارة روحه ودقة تعبيره ما جعلها توج بالإيحاء والإشراق والنبيل وقرأ قوله في أبي الحزم بن جهور :

هذا الصباح على سراك رنبا

فصلى بفرعك ليلك الغريبا

ومن أبياتها مما يمتزج فيه التمهيد بالعتاب بالمديح :

مالي وللأيام ؟ لج مع الصبا

عدوانها فكسا العذار مشيا

محقت هلال السن قبل تمامه
وذوى بها غصن الشباب رطيبا
لألم بى مالو ألم بشاهق
لا نهال جانبه فصار كثيبا
فلئن تسمى الحادثات فقد أرى
للجفن فى العضب الصقيل ندوبا
ولئن عجبت لأن أضام وجهور
نعم النصير لقد رأيت عجيبا
من لاتعدى النائبات لجاره
زحفا ولاتمشى الضراء ديبيا
ملك أطاع الله منه موق
مازال أوبا اليه منيبا
بسام ثغر البشر إن عقد الحبا
قرأيت وضاحا هناك مهيبا
ملأ النواظر صامتا ، ولربما
ملأ المسامع سائلا ومجيبا

وقد تأخذ مدائحه مسارا آخر أكثر نعومة وكأنه نسجها هذه المرة بخيوط
من حرير ، وكان الكلمات يهمس بها همسا ينساب على إيقاع موسيقى هادئة
رقيقة ، ومثل هذه القصيدة التى أعرب فيها عن شكره للمظفر بن الأفتس
أمير بطليوس ، عندما وفد إليه ، فارا من قراطبه ، فأحسن استقباله ونعنى
بذلك قصيدته :

هى الشمس مغربها فى الكلل
ومطلعها من جيوب الحلل

ومن أبيات الشكر :

سأشكر أنك أعليتني

بأحظى مكان وأدنى محل

وأني إن زرت لم تحتجب

وإن طال بي مجلس لم تمل

تبسمت ثم ثنيت الوساد

فحسبى من خطر ما أجل

فلو صاقح الترب خدى لهان

ولو كاثر القطر شكرى لعل

بأمثالها يسترق الكريم

إذا مطمح بسواه أخل

وابن زيدون فى معظم شعره واضح فى معانيه ، سهل فى ألفاظه ، وهو فى كل هذا يكشف عن ثقافة لغوية وأدبية ضخمة ، ومما يميزه كذلك هذا الفيض من الصور المتألقة ، التى تكشف عن ولعه بالتشبيه وبالطباق على نحو خاص ، وهذه القدرة الموسيقية التى يضيفها على الأبيات فتنبض بالغنائية وتنسل إلى الفؤاد .

وشعر ابن زيدون مرآة صادقة للشعر العربى - إجمالاً - بكل مزاياه وعيوبه ، وإذا كان قد استوعب كل ما ذكرنا من مفاخر فإنه لا يشف عن رؤية إنسانية خاصة إلا فى القليل النادر ، ولا شك أن جوانب الجودة عنده هى الأساس ، ومن ثم اتفق الدارسون على الإشادة به ، ورأوا فيه " أعظم شاعر قديم أنجبته الأندلس " على حد تعبير جومث .

المعتمد بن عباد

شهد الربيع الأول من القرن السادس الهجري سقوط الخلافة الأموية سنة (٤٢٢) واشتداد ساعد حركة " الاسترداد " النصرانية ، وتمزق الدولة إلى أشلاء متناثرة بعد الجاه والمنعة وعلو الشأن علي زمن الفاتحين الأوائل وحتى أيام عبد الرحمن الداخل والخليفة الناصر وأيضا المنصور العامري .

وشهدت الأندلس بعد ذلك ، من بين ما شهدت ، سطوع نجم بني عباد الذي تتابعوا علي ملك إشبيلية وكان منشئ دولتهم القاضي محمد بن اسماعيل ابن عباد (وأصوله من عرب الحيرة) رجلا داهية واسع الطموح ، استطاع أن ينصب نفسه أميرا علي المدينة ، وأعلن أنه يحكم في ظل " الشرعية " ويتعاضد ممن زعم أنه هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر " وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين سنة ، ثم قيل إنه حي في قلعة من قلاع الأندلس ، فدعاه القاضي وجعل له اسم الملك ووطد به سلطانه ، وثبت إمارته توفي الرجل المدعو هشاما" (١) ، وكان هذا الموقف واحدا من عجائب التاريخ ، الحافلة بالخداع والادعاء (٢) .

وقد استمرت إمارة محمد بن القاسم قرابة عشرين عاما (من ٤١٤ - ٤٣٣ هـ) ، فلما مات خلفه ابنه أبو عمرو ، الملقب بالمعتضد الذي حكم قرابة

(١) د. الوهاب عزام : المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٨ .
(٢) يصفه ابن بسام في الذخيرة - المجلد الأول من القسم الثاني ، ص ٣٧ . به " صاحب الرجعة " وقد توقفت الخطبة له في أشبيلية سنة ٤٥١ . وكان هشام المؤيد قد اختفي علي أثر استيلاء أحد أمراء البيت الأموي علي مقاليد الأمور في قرطبة وتواري عن الأنظار طويلا حتي حيكمت حوله الأساطير راجع أيضا : د . حرجي طربية : الوجدية وأثرها في الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ ص ٥٩ وما بعدها .

ثلاثين سنة ، قويت فيها دعائم الدولة حتي أصبحت دولة بني عباد أقوي إمارات عهد ملوك الطوائف ، ، لكن هذا المجد لم يقم إلا علي القسوة في أنكي صورها ، حتي لتذكر كتب التاريخ أن بستان قصره حفل بالعديد من الأخشاب التي نصبت وعليها رؤوس من فتك بهم من رجالات الأندلس وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه :! ، وعبر ابن حيان عن رأيه في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود " حكايات شنيعة لم يعد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ،... ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة .. " وكان المعتضد شديد الشغف بمقطوعة قال فيها بعد أن أخضع مدينة " رندة " لنفوذه :

لقد حصلت يارندة

فصرت للمكنا عقدة

أفادتناك أرماع

وأسياف لها حدة

وأجناد أشداء

إليهم تنتهي الشدة

غدوت يروني مولى

لهم وأراهم عدة

سأفنى مدة الأعدا

إن من طالت بي المدة

وتبلى بي ضلالتهم

ليزداد الهوي جدة

فكم من عدة قتل

ت منهم بعدها عدة

نظمت رؤوسهم عقدا

فحلت لبة السُدة (١)

ومما يذكر أنه لم يتورع عن قتل ابنه وولي عهده اسماعيل إذ شك في ولائه له وانه بالخيانة .

وربما كان المعتضد أعظم ملوك " الطوائف " قوة ومنعة لكن ابنه المعتمد (أبو القاسم محمد بن عباد)؛ هو الذي خلد ذكره في التاريخ باعتباره شاعرا إلى جانب أنه كان الأمير الذي دانت له الأصقاع وعمرت قصوره بأعظم آيات الترف ، ثم هوي من علم وتحولت حياته اللاهية إلى مأساة بالمعنى الدقيق للكلمة .

وغير بايجاز علي حياة المعتمد ، علي الرغم من أبعادها " الدرامية " العجيبة ، التي استحوذت علي الاهتمام في القديم وفي العصر الحديث ووجد فيها الروائيون وكتاب المسرح مادة خصبة للحديث عن البطولة والحب والدهاء والذكاء والطموح و أيضا تتناول مأساة الإنسان في ارتقائه قمة المجد ، ثم في انحداره إلى الدرك الأسفل من الضياع والهوان

وتتلخص حياة المعتمد أبي القاسم محمد بن عباد في أنه ولد في مدينة باجة ، غربي الأندلس في وكان يتلقب في بداية أمره باسم الظافر المؤيد بالله ، ثم تحول إلى المعتمد بعد توليه العرش سنة ٤٦١ هـ ولا يعرف شئ عن أمه

(١) الذخيرة (القسم الثاني) المجلد الأول ص ٣٢ .

(وكان المعتضد قد تزوج من ثمانمائة فتاة) وتمرس منذ شبابه علي الأعمال العسكرية والسياسية ، فقد ضم إلي مملكة العباددة عددا من المدن والقلاع ، منها شلب (وعين أميرا عليها) فلما تولي الملك عين عليها صديقه الشاعر ابن عمار ، الذي كان قرينه في حياة اللهو والمجون في شلب ، ثم كان زواجه من اعتماد الرميكية ، نحو سنة . ٤٥ هـ (١)

وقد خلف هذا الزواج أثرا عميقا في حياة المعتضد ، وكانت له بمثابة المستشار في كافة شؤون الدولة والمهمة لكثير من شعره ويؤثر أن شاعرنا قاد في سنة ٤٥٩ حملة للاستيلاء على مالقة وكانت من أملاك باديس بن زيري الصنهاجي صاحب غرناطة ، وقد كادت هذه الحملة أن تحقق غاياتها إلا أن الدائرة دارت عليه في النهاية ، وفر من المدينة وهو في خزي من الهزيمة، وفي خوف من حساب أبيه وهو الطاغية القاسي الجبار ، وفي هذا الموقف كتب الشاعر واحدة من أجمل قصائده ، استهلها بمخاطبة نفسه :

سكن فؤادك ، لا تذهب بك الفكر

ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترض بالبكاء لها

واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وان يكن قدر قد عاق عن وطر

فلا مرد لما يأتي به القدر

(١) رجع د. صلاح خالص هذا التاريخ في دراسة حول : المعتضد بن عباد الأشبلي ، بغداد سنة ١٩٥٨ ص ٣٠ .

وان تكن خيبة فى الدهر واحدة

فكم غزوت ومن أشياحك الظفر

وهذه القصيدة أول ما وصل إلينا من آثاره ، وفيها ما ينم عن درية ، مما يؤكد أنها كانت مسبقة بمحاولات كثيرة قبلها .

وعندما آل إليه الملك (سنة ٤٦١ هـ) لم تصرفه أمور الدولة عن الشعر والشعراء ، ولاننسى أن المعتمد قرب ابن عمار وجعله على شلب ، ثم استدعاه إلى إشبيلية حيث تقلد الوزارة ، واستطاع المعتمد فى سنة ٤٦٢ أن يستولى على قرطبة التى كانت جيوشه قد جاءت إليها لتدعيم ملك عبدالمملك بن جمهور وصد غارات ابن ذى النون عنها ، ثم لم تلبث هذه الجيوش أن بسطت نفوذها على حاضرة الأمويين ، وفى ذلك بقول المعتمد :

من للملوك بشأو الأصبى البطل

هيهات ، جاء تكم مهدية الدول

خطبت قرطبة الحسناء إذمنعت

من جاء يخطبها ، بالبيض والأسل

كما نجح ابن عمار فى الاستيلاء على مرسية ، لكنه لم يكن فى واقع الأمر يعمل لحساب سيده "المعتمد" وإنما لحساب نفسه ، متواطئاً فى ذلك مع ملوك الفرنجة وخاصة ألفونسو السادس ، وفى هذه الأونة سقطت طليطلة فى أيدي النصارى (سنة ٤٧٤ هـ) وابتدأ بذلك طور خطير فى زعزعة كيان المعتمد ابن عباد ، واشتداد قوة حركة "الاسترداد" ، وكان سيد إشبيلية القوى يزدى الجزية صاغراً لألفونسو السادس ، وصورة الأندلس تبدو آنذاك شديدة الاضطراب ، منذرة بالويل والدمار ، وبالفعل وقع التنافر بين المعتمد والمملك القشتالى ،

ولم يكن هناك من مناص إلا الاستعانة بالأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وكان
ماكان من أمر عبور الجيوش البربرية إلى الأندلس والانتصار الهائل فى معركة
الزلاقة التى يسميها الأوربيون ساكر الياس Sacralias ذلك سنة ٤٧٩

وبعد ذلك بسنتين كان العبور الثانى ليوسف بن تاشفين لتخليص بعض
الحصون من أيدي الفرنجة ، ثم كان العبور الثالث الذى قرر فيها أمير البربر
تخليص الأندلس من كافة ملوك الطوائف - بما فيهم المعتمد بن عباد - وتوحيد
البلاد تحت امرته ، وهكذا كان الاستيلاء على مملكة غرناطة وطرده بنى زيرى
منها، ثم جاء الوقت الذى تأهب فيه للانقضاض على المعتمد، ولم يتورع هذا
عن طلب العون من ألفونسو السادس، ونجحت جيوش المرابطين فى الاستيلاء
على قرطبة وقتل أميرها (المأمون ابن المعتمد) وفى سنة ٤٨٤ دخلت الجيوش
البربرية إشبيلية، وسبق المعتمد وأمهات أولاده وأولاده إلى أغمات عاصمة
البربر، ولسان حاله يتمتم :

لما تماسكت الدموع

وتنبه القلب الصديق

قالوا الخضوع سياسة

فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضوع

ع على فمى السم النقبع

إن يسلب القوم العدا

ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه

لم تسلم القلب الضلوع

لم أستلب شرف الطب

ع أيسلب الشريف الرفيع

قد رمت يوم نزالهم

ألا تحصننى الدروع

وبرزت ليس سوى القمي

ص على الحشا شق دفعوع

وبذلت نفسى كي تسي

ل إذا يسيل بها التجيع

أجلى تأخر لم يكن

بهواى ذلى والخضوع

ماسرت قط الى القتا

ل وكان من أملى الرجوع

شيم الألى أنا منهم

والأصل تتبعه الفروع

ثم كانت حياة النفى والمهانة والحرمان فى سجن أغمات ، وهو يرسف فى القيود كالليث الأسير أما اعتماد الرميكية - مليكة إشبيلية التى كانت ترفل فى الجاه والنعيم - فإنها وبناتها كن يتعيشن بالغزل نظير دراهم معدودات ، ولم يكن له وقد ضاع الملك إلا أن يلوذ بكنف الشعر يبثه أشجانه ، ومن أجمل ما كتب فى سجن أغمات تلك الأبيات وقد رأى قمرية تنوح وفى عشا طائران

صغيران :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر
مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة
يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها
وما نطقت حرفاً يبوح به سر
فمالي لا أبكى أم القلب صخرة
وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده
وأبكى لألاف عديدهم كثر
بنى صغير، أو خليل موافق
يمزق ذا قفر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رنذة القبر
إذن إن صن جفنى بقطرة
وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وقد بكى الملك الذاهب، وتأسف على الذكريات النادرة فى إشبيلية، لكن
الشجو يبلغ أوجه فى مراثيه لولديه:

يقولون صبرا لاسبيل إلى الصبر

سأبكى وأبكى ماتطاول من عمرى

هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه

يزيد فهل عند الكواكب من خبر

نري زهرها فى ماتم كل ليلة

تخمش لهنا وسطه لهفة البدر

ينحن على نجمين أثلكت ذا وذا

وأصبر؟ ماللقلب فى الصبر من عذر

وفى تغبيره عن المهانة التى آل إليها أمر فلذات أكباده ، وقد أقبل العيد

وليس على بناته سوى الأطمار البالية :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد فى أغمات مأسورا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة

يفزلن للناس لايملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

بطأن فى الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والحق أن شعر السجن وشكوى الدهر وصل إلى ذروة روعته الفنية
والتأثيرية عند المعتمد بن عباد ، ومن أجمل ما تذكره له في هذا المجال تلك
الأبيات التي يناجى فيها الأغلال التي تكبله ووقع ذلك على أطفاله الصغار
وهم ينظرون إليه في أسى :

قيدي أما تعلمنى مسلما

أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم قد

أكلته لاتهشم الأعظما

يبصرنى فيك أبو هاشم

فينثنى القلب وقد هشما

ارحم طفيلا طائشا لبه

لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثله

جرعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئا فقد

خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئا فما

يفتح إلا لرضاع فما

وآخر ما تذكره له تلك الزفرة الحزينة التي تفيض بالحنين إلى الماضي
الذاهب في إشبيلية (وأهل الأندلس يسمونها أيضا: حمص) حتى ليتمنى لو

يدفن جدته فيها:

غريب بأرض المغربين أسير
سبيكى عليه منبر وسرير
وتدبه البيض الصوارم والقنا
ويتهل دمع بينهن غزير
سبيكيه فى زاهيه والزاهر الندى
وطلابه والعرف ثم نكير
إذا قيل فى أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور
فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
تراه عسيرا أم يسيرا مناله
ألا كل ماشاء الإله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشور قبور

هذه خطوط عامة عن أمير فارس شاعر بمعنى الكلمة ، وإذا كان الذى وصل من شعره قليل فإن فيه ما يكشف عن سمات فنية متنوعة، ولعل من أبرزها ذلك "الوضوح الذى يدل على وضوح التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء ، وما ساعد على هذا الوضوح الوحدة فى شعره،

فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر مر بنفس المعتمد ، وتتضافر الابيات
فى إيضاح هذا المخاطر ، وتسير فى اتساق ونظام" (١) ، ومن الملامح الفنية
البارزة عنده روعة وقوة الصور، فإنها كانت تأتي فى شعره صافية ، رقاقة
مجسمة للمعنى ، والأمثلة عليها أكثر من أن تحصى مثل قوله فى غلام رآه
يوم العروبة (الزلافة) فى خضم القتال :

ولما اقتحمت الوغى دارعا

وقنعت وجهك بالمغفر

حسبنا محياك شمس الضحى

عليها سحاب من العنبر

وهناك هذا الجيشان الوجدانى الذى يكسو شعره بفلالة من الصدق وقوة
الأسر مما يخلف فى نفس القارئ أثرا عميقا لا يمحو أبدا

(١) ديوان المعتمد بن عباد بتحقيق د. أحمد أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد (مراجعة طه
حسين) القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٣ (من المقدمة)، وهناك طبعة أخرى للدكتور رضا
الحبيب السويسى تونس ١٩٧٥ سنة ١٩٧٥ لا تختلف كثيرا عن ط القاهرة

أبو اسحاق الألبيري، تحليل قصيدة

هناك نصوص أدبية تكتسب أبعادا بالغة القوة والتأثير لا بالنسبة لعصرها وحده، ولا من حيث ارتباطها بـ " مناسبة" أو بقطر ما وإنما لأنها تتغلغل في صميم الأحداث بحيث تصبح قيمة انسانية مطلقة ، تعبر عن واقعة ما كما أنها تمثل ركيزة ورمزا ومجالا لتأويلات لا حد لها من التنوع والثراء.

من هذه النصوص النادرة قصيدة تعود بنا إلى غرناطة في ظل ملوك الطوائف ، وإلى الأندلس بكل ما كانت تموج به آنذاك من أجناس وأجواء وأهواء وأعاصير راحت تتهدد مسلميها بعد أن انقسموا الى شيع متنافرة : فهناك بنو عباد في اشبيلية، ودولة بنو جهور في قرطبة، وبنو هود في سرقسطة والعامريون في بلنسية وبنو الأفضس في بطليوس ... صورة مأساوية لكيان كان من قبل ملء السمع والبصر ، لكن البنيان الشامخ انهار ، وتحول الى مجرد طول وجدران وسراديب وأحجار ...

لكن مايشغلنا الآن قصيدة اشتهرت في غرناطة التي كانت خاضعة آنذاك لأمير بربري من صنهاجة هو باديس بن حبوس ، رأس بنو زيري آنذاك

وقد قدر لباديس هذا أن يحرز سلسلة من الانتصارات على زهير العامري، صاحب المرية، وعلى بنو عباد وبنو حمود ، ولكنه كان "سفاكا للدماء، فيه عدل بجهل" على حد تعبير الذهبي، الذي روى عنه نوادر تشبه من بعض الوجوه ماروي عن قراقوش وزير صلاح الدين ، فمن ذلك أن امرأة وقفت له عند باب مدينة ألبيرة" فقالت: يامولانا: ابني يعقني، فطلبه ودعا بالسيف،

فقلت المرأة: إنما أردت تهديده ، فقال: ماأنا بمعلم كتاب ، وأمر به فضربت عنقه" (١)

وخبر آخر حكاة الذهبى أيضا يقول ان أميرا صنهاجيا مر ببدوى بانس ومعه زوجة جميلة، فأركبها الأمير شفقة عليها ثم هرول بها وضمها الى حريمه، وجاء الرجل لقصر الأمير فطردوه، عندئذ توجه الى باديس فشكاه أمره، فقال الملك لذلك الأمير "ادفع اليه زوجته" فأنكر، فقال : يابدوى! هل لك من شهيد ولو كلبا يعرفها؟ قال: نعم، فدخل بكلب له الى الدار، وأخرجت الحرم ، فلما رآها الكلب عرفها وبصيص ، فأمر الملك بدفعها إلى ، البدوى ، وضرب عنق الأمير، فقال البدوى: هي طالق لكونها سكتت ورضيت فقال الملك صدقت! ولو لم تطلقها لألحقتك به . ثم أمر بالمرأة فقتلت" ولا نريد أن نطيل فى أخبار باديس هذا الذى امتد ملكه على غرناطة طويلا (ثم تملك من بعده عن الله بن بلكين ابن حبوس، وفى عهده استولى يوسف بن تاشفين على غرناطة سنة ٤٨٣ وتم نفي عبدالله الى أغمات وهناك ألف كتابه: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة، وهذا الكتاب نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان : مذكرات الأمير عبدالله ، وبعد أهم مصدر عن نهاية عهد ملوك الطوائف، خاصة مااتصل منها بغرناطة) إذ حكمها من ٤٣٠ هـ إلى ٤٦٦ هـ.

ومن أغرب مااتسم به ذلك العهد ازدياد نفوذ اليهود بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل، ولعل من أسبابه أن بنى زيرى كانوا يشعرون بالعزلة بسبب عداة بقية أهل الأندلس لهم ، وشعورهم بأن هؤلاء البربر دخلاء عليهم، ومن ثم عول بنو زيرى على هؤلاء اليهود ، فكان منهم الوزراء وجباة الأموال والمراجعون الخ ... وكان جل اعتمادهم على بنى النغرلة .

(١) سير أعلام النبلاء ٥٩١/١٨

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه الصيغة : النغرة مختلف عليها إذ " يكتب الاسم على أشكال لعل أصوبها ابن نغدة أي " المدبر" ويطلق على اثنين مشهورين هما صموئيل بن يوسف (اسماعيل أو اشموال بن يوسف) ويوسف ابته، وقد كان اسماعيل عالما وزر لصاحب غرناطة، وخلفه ابنه يوسف فأساء التصرف فيما يبدو ، فثار الناس عليه وقتلوه ، ولكن ابن بسام ينسب أفعال الابن إلى أبيه ، ويتابعه في ذلك ابن سعيد في المغرب" (١) والثابت على كل حال ان مكانة ابن النغرة كانت عالية عند باديس ، لأن هذا اليهودي الماكر جعل أمير غرناطة سجيناً للملذات والخمر ، وسعى (هو أو أبوه) لتمكين ابن صمادح - صاحب المربة - من الاستيلاء على غرناطة، كما أرق أهل المدينة بالضرائب الباهظة، ومكن اليهود في المقابل من المناصب البارزة، وهذا كله عمل على إلهاب مشاعر مسلمي غرناطة الذين صبروا طويلاً على هذا العبث من ابن النغرة، وهذا التراخي من باديس بن حبوس، وكان أن انفجر الموقف في التاسع من صفر سنة ٤٥٩ (٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦) وإذا بالجموع الغاضبة تفتك بالوزير اليهودي وتقتل بضعة آلاف من بني جلدته، وتشيع الخراب والدمار في أحياء اليهود بغرناطة . ويجعلون من أسباب اشتعال الثورة ضد اليهود تلك القصيدة التي أشرنا إليها في مستهل هذا الحديث ، وهي لشاعر اسمه أبو الإسحاق الإلبيري، هو الذي نتناوله الآن في إيجاز .

(١) هامش الذخيرة، المجلد الثاني من القسم الأول ، ص ٧٦١ ولاهن حزم رسالة الرد على ابن النغرة، تحقيق د. احسان عباس، القاهرة سنة ١٩٦٠ وذكر ابن بسام بعض مدائح فيهم ألفها شاعر يدعى المنفلت .

(٢) ذكر ابن بسام أن عدد القتلى نيف على أربعة آلاف - ص ٧٦٩ من القسم الأول - في حين يقول جومث في : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، الطبعة الثالثة - بترجمة د. الطاهر مكي - ص ٩١ أن عدد القتلى ثلاثة آلاف

وهناك أمور متفق عليها بالنسبة له، منها ان اسمه ابراهيم بن مسعود التجيبى ، وأن كنيته أبو اسحاق ، وأنه ينسب الى مدينة البيرة، (التي نفي اليها بتحريض من ابن النفرلة) ، ونقل ابن سعيد عن صاحب المسهب أنه "من حصن العقاب ، وكان قد اشتهر فى غرناطة اسمه ، وشاع علمه ، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرله اليهودى ، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له ، فسعى فى نفيه الى البيرة ، فقال شعره المشهور :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرب

فاشتهر هذا الشعر ، وثارت غرناطة على اليهودى فقتلوه وعظم قدر أبى إسحاق" (١)

وذهب لسان الدين بن الخطيب الى مثل هذا القول - مع بسط وتفصيل - إذ يذكر استفحال شأن ابن نغرلة الى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع الى حاله الاختلال ، وكثرت فيه الأقوال، ورمى بمدخله ابن صمادح صاحب المربة فى تصيير ملك باديس إليه . وحفظت القصيدة المنسوبة الى المولى العابد أبى إسحاق الألبيرى - رضى الله عنه :ألا قل لصنهاجة أجمعين (وأوردها كاملة) فثار بهم صنهاجة، وقد تيقنوا إغراضه عنه وعمله على نكبته ، وزحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها وانتهبوها. وأخفى اليهودى نفسه فى بيت ملآن فحما، وسود به وجهه وتنكر ، فأخرجوه وقتلوه ، وصلبوه على باب المدينة، وقتل فى هذا اليوم آلاف من اليهود.."

وفى هذه الإشارات مايجعل من قضية الألبيرى الشرارة التي فجرت

(١) المغرب ج ٢ ص ١٣٣

المعمعة، بينما لا يأتى عنها فى مصادر أخرى أدنى إشارة تدل على صلتها بالأحداث، فمن ذلك أن ابن بسام يجعل ثروة أهل غرناطة مقرونة باكتشاف ما كان من أمر التواطؤ بين ابن النغرلة وابن صمادح - الذى تحدثنا عنه قبلا - وربما كان أرجح الآراء أن عوامل كثيرة أسهمت فى صنع هذه الأحداث ، منها عكوف باديس على ملذاته الي حد أنه لم يعد يرى من الأمر شيئا ، ومنها تسليمه كافة مقاليد الأمور الى ذلك الوزير اليهودى الداھية، الذى لم يكف طيلة عهده عن التآمر والغدر ونهب الأموال وسوء الإدارة والاستهتار بالرعية والدين ، ومنها أيضا تلك القصيدة المتفجرة بالقوة وصدق التعبير والتي تقول أبياتها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة

تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافرا

ولو شاء كان من المسلمين

فعز اليهود به وانتخوا

وتأهوا ، وكانوا من الأردلين

ونالوا مناهم وجازوا المدى

فحان الهلاك وما يشعرون

هكذا تأتي البداية ملائمة لجلال الموقف العاصف، وتتجلى البراعة فى

(١) أعمال الأعلام (تاريخ اسبانية الإسلامية) تحقيق ل. بروفنسال بيرنت ١٩٥٦ ص ٢٢٣

توجيه الخطاب الى صنهاجة - الى شعب غرناطة - وكأننا أمام خطبة أو
"منشور"، وهي نغمة قليلا ما نصادفها في الشعر العربي حيث إما المديح وإما
الهجاء؛ ويتلو ذلك ذكر لتولى ابن النفرة الوزارة، وما بلغه اليهود من شأو
(موقوت)

ثم يتابع الإلبيري الحديث :

فكم مسلم فاضل قانت

لأرذل قرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم

ولكن منا يكون المعين

فهلا اقتدى فيهم بالآلى

من القادة الخيرة المتقين

وأنزلهم حيث يستأهلون

وردهم أسفل السافلين

وطائفوا لدينا بأخراجهم

عليهم صغار وذل وهون

ولكن الشاعر ، لأمر ما ، يعدل عن المضى في تبكيت باديس، فبعد أن

قال إنه زل زلة شنعاء، نراه يوجه له الخطاب قائلاً :

أباديس أنت امرؤ حاذق

تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم

وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيف تحب فراخ الزنا

وهم بغضوك الى العاليمن
وكيف يتم لك المرتقى
إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟
ثم يضيف :

وإنى احتللت بفرناطة
فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها
فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها
وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا
وأنتم لأوضاعها لابسون

ولكن لهجة الشاعر لباديس فيها محاولة لإيقاظه من غفلته وليس فيها
خنوع أو مذلة . إنه بهتف به :

وهم أمناكم على سركم
وكيف يكون خزون أمين
ويأكل غيرهم درهما
فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد لابسوكم بأسحارهم
فما تسمعون ولا تبصرون

ورخم قردهم داره

وأجرى إليها نمير العيون

فصارت حوائجنا عنده

ونحن على بابہ قائمون

وقد عرفنا من أمر فرط ثقة باديس في ابن النفرلة ومع ذلك فإن الشاعر
يغريه في هذه القصيدة بان يفتك به ، ويستعين في تسويغ ذلك بمحاولة اثاره
النخوة في نفس ملك غرناطة :

فبادر الي ذبحه قرية

وضع به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه

فقد كنتوا كل علق ثمين

وفرقت عداهم وخذ مالهم

فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدره

بل الغدر في تركهم يعيشون

وقد نكثوا عهدنا عندهم

فكيف تلام على الناكثين

وكيف يكون لهم ذمة

ونحن خمول وهم ظاهرون

ونحن الأذلة من بينهم

كأنا أسبأنا وهم محسنون

فلا ترض فينا بأفعالهم

فأنت رهين بما يفعلون

وراقب إلهك في حزيه

فحزب الإله هم الغالبون

وقد أوردنا معظم أبيات هذه القصيدة التي شغل الناس بتحليل جوانبها التاريخية، ولكنها جديرة بأن تنال كذلك قدرا من الاهتمام بأبعادها الفنية والجمالية ، ولسنا نزعم أن الألبيري من الشعراء الفحول ، ومع ذلك فأى براعة تجلت في اختيار هذا النسق اللغوي الواضح البسيط الذي يخاطب الأذن ويتسلل الى الوجدان مباشرة بلا أدنى كلفة؟

وتأتى الموسيقى الصادحة لتتواءم تماما وروح القصيدة ، التي تنتهى أبياتها بحرف النون الساكن، بكل ما فيه من رنين وأصداء ، تعضدها صور شديدة الوضوح والبساطة ومن هنا لا نكاد نصادف شيئا من الافنعال حتى في حالات تعارض الصور مثل " وكيف تحب ... وهم بغضوك.." ومثل :... إذا كنت تبني وهم يهدمون ، و "كيف انفردت بتقريبهم ... وهم من المبعدين".

ومن جوانب التوفيق في نونية الألبيري الاستعانة بالمعاني الدينية الإسلامية وهذا بلغ ذروته في البيت الأخير الذي يخلف في نفس السامع أثرا قويا يظل يرن في الاذان طويلا ، محققا الغاية التي رُمى اليها هذا النص الذي يتفجر بالقوة والغضب والحبيوة والصدق والمهارة الفنية .

لمحة عن

الشعر في عصر المرابطين والموحدين

مدخل،

لعل القرنين الخامس والسادس أعظم عصور الأدب في الأندلس ، وبحسب المرء أن يختبر كتباً مثل الذخيرة والقسم الأندلسي من الخريدة وكذلك مطمح الأنفس وقلائد العقيان والمغرب والمغرب .. الخ لكي يطمئن الى هذه النتيجة ونسلم بأن درس هذا النتاج الأدبي مسألة محفوفة بالعديد من الصعوبات ، فهل ندرسه بحسب العصور أم وفقاً لتقلب الأوضاع السياسية أم تبعاً للاتجاهات الفنية - ان كانت هناك اتجاهات واضحة المعالم - ؟

ولعل الأجدى أن نتفق على أن الأدب الأندلسي "مجرد فترة من تاريخ الأدب العربي.. لا يقتصر ارتباطها على حياة الأقطار العربية وحدها، وعندما يجرى الحديث عن تطور الثقافة العالمية فإن هذا الماضي يعطينا مثالا واضحا لتمييز الحدود بين الشرق والغرب ، ويدخل الشعر العربي في نطاق الثقافة والأدب العالمي لا لمجرد أنه نما وتطور على أرض احدى الدول الغربية .. المهم هو أن الفترة العربية في الأندلس هي فترة التأثيرات الأدبية العميقة الواسعة التي تسمى جوازا بالتفاعلات الغربية - الشرقية أو على وجه التحديد الرومانية العربية؛^(١) وهذا يبلغ مداه في الفترة التي نحن بإزائها

أما "أندلسية" هذا الشعر فإن استخلاصها يحتاج الى هوادة وتمعن،

(١) كراتشكوفسكى: الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة د. محمد منير مرسى ، القاهرة

١٩٧١ ، ص ٩

فالأصول الفنية التي حكمت شعر المشرق هي التي امتدت الي المغرب، ومن الصعب إطلاق أحكام صارمة ترسم الفروق بين هذا وذاك، ولكن يمكن القول بأن أهل الأندلس كانوا في هذه الفترة أقل شغفا بالبديع من نظرائهم بالمشرق وقارن بين أعمالهم وبين أدباء مثل القاضي الفاضل وابن قلاقس وابن سناء الملك، على سبيل المثال وهذه النتيجة نستخلصها في شئ من الاطمئنان من خلال التأمل في أعمال شعراء الأندلس العظام في القرن السادس الهجري، ممن سلمت دواوينهم من الضياع أوجمعت أشعارهم في العصر الحاضر، وهناك - على سبيل المثال لا الحصر - الأعمى التطيلي الأديب الوشاح (ت ٥٢٧ق) وابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧ هـ) وابن خفاجة (٥٣٣ هـ) ... وانتهاء بأبي بكر بن زهر . الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، وكل منهم أبدع في شعره غاية الإبداع، وصفا طبعه فبعد عن التكلف كل البعد .

وامتداداً من النقطة السابقة نشير الى عدم احتفاء هؤلاء الشعراء بمنزعة التوليد العقلي الذي أغرم به كثير من شعراء المشرق آنذاك، حيث دفعتهم الرغبة في الابتكار إلى الوقوع في شرك التكلف والالتكاء على الأفكار والمصطلحات العلمية والفقهية وما إلى ذلك^(١) وهو ما لاثراه عند الأندلسيين إلا في القليل النادر

وهذا كله أدى إلى أن يكون النص الشعري الأندلسي، بصورة عامة، واضح النسق ، مترابط البنيان ، لا يلجأ عادة الى المقدمات الشكلية، ويغلب عليه الميل إلى التشخيص والتفاعل مع الطبيعة والحياة^(٢) ويجنح الشعر الأندلسي إلى التعبير عن مدى إقبالهم على الحياة وشغفهم بكل ما يحيط بهم

(١) للمزيد من التوسع يراجع : د. حكمت الأوسى: الشعر في عصر الموحدين ص ٢٤٣

(٢) راجع في ذلك كتاب ب. عبدالعزيز الأهواني: ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، وانظر كتابنا : النصوص الصقلية، والمراجع المذكورة فيه .

من جمال وترف ونضارة ولذا جاء هذا الشعر فى معظمه واضح الأفكار والتراكيب والصور ، وقد يوصف بالسطحية وعدم الجزالة وقلة التأنق إلى آخر ما يطلقه أصحاب الأذواق "الكلاسيكية" من أحكام قاسية لاتخلو من تعسف .

ويلاحظ ، على كل حال، أن الشعر الأندلسى أكثر "رومانسية" من الشعر المشرقى وهذه بدورها مقولة ضخمة تحتاج الى مزيد من الشرح والاستدلال والتحديد ، فضلا عن أن تحديد "الرومانسية" (١) أمر معقد، وكل ما نريد أن نقوله الان فى إيجاز ان الحدة العاطفية تبدو أشد توهجا فى الأندلس منها فى المشرق، على الأقل ابان تلك الفترة التي نتعرض لها، والتي ضمت شعراء مثل ابن خفاجة الأندلسى ، وابن الزقاق البلبسى ويحيى بن بقرى وأمىة بن أبى الصلت وابن اللبانة والأعمى التطيلى وابن مجبر وابن زهر الحفيد الخ ، ممن سوف نتناولهم وممن لا يتسع المجال للحديث عنهم تفصيلا .

ومن منا لم تتحرك أحاسيسه وهو يقرأ قصيدة ابن خفاجة " فى

الاعتبار":

بعيشك هلى تدرى أهوج الجنائب
تخب برحلى أم ظهور النجائب
فما لحت فى أولى المشارق كوكبا
فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب
وحيدا تهادانى الفيافى فأجتلى
وجوه المنايا فى قناع الغياهب

(١) لا نعى بالرومانسية هنا المدرسة الرومانتيكية التي شاعت فى الشعر الأوربى فى أخريات القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن المقصود منها الأدب الذى تسيطر عليه الأخيلة والانفعالات الحارة والانغماس فى الذات .

وأشهر ما فيها قوله في وصف الجبل :
وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعناق السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالي مطرق في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصحت اليه وهو أخرس صامت
فحدثني ليل السرى بالعجائب^(١)

ومن هذا الطراز قوله ابن جبير البلنسى:
غريب تذكر أوطانه
فهيج بالذكر أشجانه
يحل عري صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفانه
وقول أبي الحسن بن مطرف، من شعراء مجموعة "زاد المسافر":
أنا صب كما تشاء وتهوى
شاعر ماجن خليع جواد

(١) راجع القصيدة في ديوانه (طبعة د. سيد غازی ص ٢١٦)

أرضعتنى العراق ثدى هواها
وغذتني بظرفها بغداد
راحتى لوعتى وإن طال سقم
وتماذي على الجفون سهاد
سنة سنها قديما جميل
وأتى المحدثون مثلى فزادوا

على أن الشعر الأندلسي لم يكن كله شعر لهو وغزل وهيام في رحاب
الطبيعة فقد خاض في مختلف مجالات التعبير ، والتصق بالخلفاء والأمراء
وذوى الجاه ، وتناول كذلك المعارك فهلل للانتصارات، ونقب عن الأعذار عند
الهزيمة، وتحول أحيانا إلى ما يشبه "البيانات" الحماسية الناطقة باسم الدولة، فمن
ذلك أن الخليفة أبا يعقوب يوسف أمر بأن تذاع في قبائل افريقية قصيدة تحضهم
على ترك الخلافات والتأهب للجهاد لنصرة الأندلس، فكتب علي اثر ذلك طبيبه
الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل قصيدة طويلة مطلعها:

أقيموا صدور الخيل عند المضارب

لغزو الأعدى واقتناء الرغائب (١)

ومن أبياتها :

ألا فابعثوها همة عربية

تحف بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من بنى ابن عامر

وما جمعت من طاعن ومضارب

(١) انظر الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٤٧٩

لكم قبة للمجد شدوا عمادها

بطاعة أمر الله من كل جانب

كما أمر الخليفة بأن توجه قصيدة ثانية فكتب ابن عياش الكاتب على

الأثر :

أقيموا الى العليا عوج الرواحل

وقودوا الى الهيجا جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر

وشدوا الى الأعداء شدة صائل

فما العز إلا ظهر أجرد سابع

يفوت الصبا في شدة المتواصل

وأبيض ماثور كأن فرنده

على الماء منسوج وليس بسائل

ومن أبرز شعراء هذه الفترة عباس الجراوى (منافس ابن مجبر، وسنعرض

له بعد قليل)، وله عشرات القصائد فى مدح الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ابنه

المنصور، وله فى التهنية بانتصاره على بنى غانية وفتح قفصة قصيدة ذكر منها

ابن عذارى عشرين بيتا، يستهلها بقوله :

فتح يطاول فتحه الأحقابا

خضعت له فرق الضلال رقابا

واستشعر المراق منه مخافة

ملكك عليهم جيئة وذهابا

وغدا به ماقد صفا من عيشهم
كدرا ومافيه الحلاوة صابا

ويقول فى وصف الانتصار:

آيات نصر بينات كلها
بهرت بما جاءت به الألبابا
خصت إماما للبرية محبتى
برا تقيا خاشعا أوّابا
ملك عليه مسحة ملكية
ليس الزمان جمالها جلبابا

وللجراوى قصيدة قالها يهنئ المنصور باستيلائه على مدينة شلب من أبدى
قرنجة البرتغال:

إياب الإمام حياة الأمم
توالى السرور به وانتظم
وجاء به الأرض صوب الحيا
وجلى الظنم به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان
لذى همم دونهن الهمم (١)

وإذا كان هذا النمط من الشعر يزخر بالمخاطبية وإضفاء شتى النعوت على
السدوحين، والقدح فى الأعداء بكل السبل فإن فى بعض نماذجه ما يفصح عن
شاعرية أصيلة تفاعلت مع المواقف، ومزجت مزجا حيا بين ذات الأديب وشخص

المدوح وجلال الأحداث ، (على ماسترى فى كثير من شعراىن مجبر) وتوهج
الشاعرية، كما فى مدحة ابن حزمون التى وجهها للخليفة المنصور فى أعقاب
النصر يوم "الأراكة" :

حيتك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأثمهم
إن الإسلام لفى عرس
أ إمام الحق وناصره
طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى
قدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على
عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما
صدع الديجور سنا قيس
لاقيت جموعهم فغدوا
فرسا فى قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم
عددا لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على
ثقة بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلا كله

بظباك على بشر نجس

وتساوى القاع بهامهم الـ

مرفض مع الحدب الضرس

فأولئك حزب الكفر ألا

إن الكفار لفي نكس

وهكذا تنتهى من هذه العجالة الموجزة عن الأدب فى القرن السادس الهجرى فى الأندلس ، وهى فترة نهضة أدبية وعلمية وحضارية أحييت التألق الذى كانت عليه البلاد على أيام دول الطوائف ومحت جالة الركود الفكرى التى سادت على زمن المرابطين، كما أن هذا القرن كان عصر قوة نسبية للمسلمين هناك، وهكذا تفتقت الطاقات الفنية لمن ذكرنا من شعراء، وشهدت الأندلس كذلك عبقریات فى مجال الفكر مثل ابن رشد، وظهر فى مضمار الطب أبو بكر بن طفيل وفى النحو ابن مضاء صاحب "الرد على النحاة" وفى هذا القرن بلغت الموشحات ذروة تألقها كما انتشرت فيه الأزجال على يدى أبى بكر بن قزمان، وظهرت فيه نخبة طيبة من روائع كتب الأدب مثل "الذخيرة" لابن بسام وقلائد العقيان والمطمح لابن خاقان ، وزاد المسافر لصفوان بن ادريس الخ ...

الأهمى التطيلى :

ان هذا الشاعر الفذ (أبو جعفر - وأيضا أبو العباس - أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة أو ابن هريرة) ينحدر من أصول عربية (من القيسية) وعادة ما ينسب إلى تطيلة Tudela - وهى غير طليطلة - وتقع قريبا من شرقسطة، من الثغر الأندلسى الأعلى ، وينسب أيضا لإشبيلية . ومن الملاحظ أن المعلومات عنه قليلة للغاية، وكل ما يرد عنه (باستثناء المختارات الشعرية) لا يتجاوز الأسطر القليلة، فمن ذلك ما يأتى فى "الوافى بالوفيات" وفى "نكت الهميان" .. الخ، وعلى الرغم من أن ابن بسام خصص له خمسا وعشرين صفحة إلا أنها فى مجموعها مختارات شعرية ونثرية ، يتصدرها قوله : " وله أدب بارع ، ونظر فى غامضه واسع، وفهم لا يجارى وذهن لا يبارى ، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء فى ذلك بالنادر المعجز فى الطويل منه والموجز، نظم أخبار الأمم فى لبة القريض ، وأسمع فيه ما هو أطرف من نغم معبد والغريض . وكان بالأندلس سر الإحسان وفردا فى الزمان، إلا أنه لم يطل زمانه، ولا امتد أوانه ، واعتبط عندما به اغتبط؛ " (١)

ولاتكاد المصادر الأندلسية الأخرى التى ترجمت له (مثل قلائد العقيان والمغرب والبغية والروض المعطار) تضيف شيئا ذا بال، والمتفق عله أنه توفى سنة ٥٢٥ مما يرجع معه أنه ولد فى ظل دولة المرابطين، وفى عهد فارق الحياة

(١) القسم الثانى من الذخيرة ، ص ٧٢٨ ، وراجع عنه أيضا :

العماد الأصفهانى : خريدة القصر (ط. تونس)

ابن فضل العمري : مسالك الابصار . مصورة منها ص ٢٦٧ من السفر السابع عشر

وليس هناك - من بعد - الا حفنة من المعلومات عن الشاعر تستمد بصورة
أساسية من ديوانه ، ويلاحظ أن أدبنا لا يشير قط الى تطيلة ، فى حين أنه
كثيرا ما يذكر اشبيلية، التى نشأ بها على نحو ما يقرر الصفىدى لكنه يبدو بها
ملولا أحيانا:

مللت حمص وملتنى فلو نطقت

: كما نطقت تلاحينا على قدر

ويقول فى بائيته "عتاب على الدنيا وقل عتاب" :

وقائلة ما بال حمص نبت به

ورب سؤال ليس عنه جواب

نبت بى فكنت العرف فى غير أهله

يعود على أهليه وهو تباب

فبالله ما استوطنتها قانعا بها .

ولكننى سيف حواه قراب

أىغضب حسادى قيامى إلى العلا

وقد قعدوا لما ظفرت وخابوا

بل أن ديوانه يستهل بقصيدة "بحرض فيها أهل اشبيلية

على رجل عسوف" - :- :

الى الله أشكو الذى نحن فيه

أسى لا ينهنه منه الأسى

على مثلها فلتشق القلوب

مكان الجيوب والا فلا

فشا الظلم واغتر أشياعه
ولا مستغاث ولا مشتكى
"وماذا بخص من المضحكات
ولكنه ضحك كالبيكا"

والتطيلي كثيراً مايتشكى الفقر:

الحمد لله وشكرا له
لا طارف عندي ولا تالد
صرت ولا أنبيك عن غائب
فى حالة يرثى لها الحاسد
حولى أقراخ كزغب القطا
ليلى من هم بهم ساهد

ووسط هذا الجو القاتم من الشكوى والتبرم تنداح مدائح التطيلي لتشغل
معظم الديوان وبعض منها قيل فى على بن يوسف بن تاشفين، ثانى ملوك
المرابطين ، وكان وقتها وليا للعهد :

جنابك للعلا حصن حصين
وذكرك للمنى دنيا ودين
وأدنى غايتيك لها أمان
وكلتا راحتك بها يمين
أهاب بك الزمان إمام عدل
فلبته بك الحرب الزبون

حساما ماانتضاه الدهر الا

ليعلم من يقى ممن يخون

وأخر أبياتها:

ولى العهد لى بهواك عهد

كأن مدائحى منه يمين

سدت مقارى وأشدت باسمى

فذل الصعب وانقاد الحرون

وخيل لى الغنى فنطقت عنه

لعلمى أنه مما يكون

وقد بويح على بن تاشفين أميرا للمسلمين سنة . . ٥ هـ ، مما يقطع بأن

قصيدتنا هذه قيلت قبل هذا التاريخ .

وللتطيلى مدائح كثيرة فى عدد من قواد المرابطين ووزرائهم ورجالاتهم

فمن ذلك مقاله فى الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى (ابن عم يوسف بن

تاشفين) الذى يعود له الفضل فى الاستيلاء على أهم ممالك "الطوائف" :

أقل ماتهب الأعمار والدول

ودون ماتتعاطى القول والعمل

ومن أبياتها :

ياأيها الملك الميمون طائرته

يابدر يابحر ياضرغام يارجل

أتاركى لصروف الدهر تلعب بى

وقد حدانى اليك الحب والأمل

كما مدح القائد ابا الحسين بن الربيع بقصيدة طويلة فى ثمانية وسبعين
بيتا أولها:

تلاق فلاتا وأخلف فلاتا
كفانا منى وكفانا امتنانا
وطاول بعمرك عمر السهى
فأبل زمانا وجدد زمانا

ومن أبيات المديح فيها:

ركبت الملوك وأركبتها
تكف الجماح وتكفى الحرانا
وأشبهت آباءك الأولين
عرضا عزيزا ومالا مهانا
ولعل الجديد فى مدائح التطيلى أن بعضا منها قيل فى الأميرة حواء
زوجة ابن سير ، مثل قصيدته :

ياربع ناجية التى انهلت بها السحب
أما ترى كيف ثابت دونك النوب

ولقطع المديح تمهيد جميل يقول فيه :

هبت تعاتبنى زهر وقد علمت
أن العتاب شجى فى القلب أو شجب
قالت : قعدت وقام الناس كلهم
ألا يعلك الإثراء والرتب

فقلت كفى فما تغنى مقارعتى
فى أمة ضاع فى أثنائها الأدب
فاستضحكت ثم قالت: أنت فى سعة
من أن تسيم، وهذا الماء والعشب
أما رأيت ندى حواء كيف دنا
بالغيث اذ كاد يأتى دونه العطب
مليكة لا يوازى قدرها ملك
كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

وفى ديوان التطيلى بعض قصائد فى الرثاء وغيره إلا أن براعته إنما
تتمثل بصورة أساسية فى المديح وفى شعر الغزل ، وهناك ما يدل على أنه تعلق
بقينة تدعى "لذيذة" وله فيها قصائد أوردها صاحب "الذخيرة" فمن ذلك قوله:
النوم بعدكم على محرم
من ذا ينام وقلبه يتضرم

ومن أبيات هذه القصيدة (كما لا يوجد فى ديوانه) :
ماء الحياة وقد نأبتم آسن
رنق ووجه الدهر جهم مظلم
قد بان عنى الصبر لما بنتم
والوجد ينجد فى الفؤاد ويتهم
ما كان أكتمنى لسرى قبل أن
تكف الدموع كأنما هى عندم

فإذا عهدت جماعة واعتادنى

تذكاركم فاضت دموعى تسجم

أعتبتكم فعتبتم وأطعتكم

فعصيتم ووصلتكم فهجرتم (١)

قد كان لى فى هجركم لو أننى

أقوى عليه من السلامة سلم

ولقد علمتم أننى قد رمته

فضعفت عنه فافعلوا ماشئتم

أنتم منأى وفيتم أو خنتم

ولكم هواى دنوتم أو بنتم

وهو شعر غاية فى السلاسة ، يتفجر من قلب مترع بالشعور ، ومن قلب
أوتى الفضاحة والقدرة على تجسيم المعانى ورسم الصور الحية المتألقة المتدفقة
بالفن والجمال ..

هذه لمحة عن الأعمى التطيلى الذى عد من اعظم شعراء عصر المرابطين،
أى ذلك العصر الذى هيمن فيه البربر على مقاليد الأمور فى المغرب والأندلس ،
واهتزت فيه مكانة الشعراء تبعاً لذلك فى حين تصدر الفقهاء - من أصحاب
مالك - مما دفع بشاعرنا لأن يصرخ :

أيا رحمة للشعر أقوت ربوعه

عجلى أنها للمكرمات مناسك

(١) البيت فى الذخيرة ، القسم الثانى ص ٧٣٩ : على هذا النحو :

أعتبتم فعتبتم وأطعتم

فعصيتم ووصلتم فهجرتم

وللشعراء اليوم ثلث عروشهم

فلا الفخر مختال ولا العز تامك (١)

فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي

فقد أصبحت تلك العرى والعرائك

ويا " قام زيد " أعرضي أو تعارضي

فقد حال من دون المنى قال مالك!

ومع ذلك فقد عاش شعر التطيلي وتغنى به العارفون بفضلته في الشرق

والغرب ، وألفت عنه الكتب والرسائل (٢) وأما الموشحات فإنه بلغ فيها الغاية،

ولهذا حديث في غير هذا المكان ..

(١) تامك : مرتفع .

(٢) راجع عنه :

عبد الحميد عبدالله الهرامة: الأعمى التطيلي ، طرابلس (ليبيا) ١٩٨٣

ومقدمة ديوانه بتحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣

ابن مجبر المرسي

هذه وقفة أمام شاعر ينتمى إلى عصر الموحدين ، بل هو "شاعر عصره" كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين ، ومع ذلك فإن اسمه غاب فى زحام الأحداث ، فلم يعد القارئ يصادفه ولو عرضاً فى المؤلفات العامة عن تاريخ الأدب الأندلسى ، بل لم يعد يقابله إلا نادراً فى الدراسات التى عقدت حول الحياة الأدبية فى عصر الموحدين .

ومحاولتنا هذه تهدف إلى إلقاء بعض الضوء على حياة وأعمال هذا الشاعر المبدع، وقد عرضنا له فى كتاب مستقل تناول عصره ، من زواياه المختلفة، وحياته، مع جمع لما بقى فى المصادر من عيون شعره، وهناك أيضاً زاوية هامة نلمع إليها فى إيجاز ، وهى أنه كان كذلك صاحب اسهام فى مجال التوشيح (ومن عجب أن كافة المراجع الحديثة لا تذكر شيئاً البتة حول هذه النقطة) .

أما شاعرنا فهو بحسب تعبير الذهبى فى "سير أعلام النبلاء": "شاعر زمانه الأوحى ، البليغ أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر ، الفهرى المرسي ، ثم الاشبيلي : مدح الملوك، وشهد له بقوة عارضته ، وسلامة طبعه ، وفحولة نظمه قصائده التى سارت مثالا ، وبعدت مثالا" (١).

(١) ج ٢١ ترجمة ١.٥ وانظر التكملة لكتاب الصلة والقوات ووفيات الأعيان (فى ثنايا ترجمة الخليفة المنصور) وبغية المتمس للضبي الخ ...

وقال عنه ابن الأبار :

" كان فى وقته شاعر الأندلس ، بل شاعر المغرب غير مدافع " ووصفه ابن شاعر فى الترجمة التى عقدها له فى "الفوات" بأنه "شاعر الأندلس فى وقته " .

أما ابن خلكان فقد عرض له فى ثنايا الترجمة ليعقوب بن عبد المؤمن قائلا : "وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى. ولقد نظرت فى ديوانه فوجدت أكثر مدائحه فى الأمير يعقوب"

وهناك إشارة أخرى للديوان تأتى فى "بغية الملتبس للضبي ؛ أديب شاعر متقدم فى طريقة الشعر ، برع فيها وفاق أهل زمانه...ولقد رأيت شعره مجموعا فى سفرين ضخمين" .

وقد عرفنا من قبل أن شاعرنا مرسى اشبيلى، ونضيف إلى ذلك قول الحميري فى ثنايا ذكره لمدينة شقورة، من أعمال جيان بالأندلس؛ "ومن شقورة أبو بكر بن مجبر ، الشاعر المفلح المجيد ، شاعر دولة عبد المؤمن".

كذلك فإن أبا بحر صفوان يذكر شاعرنا تحت اسم "أبو بكر بن مجبر من بلش" وبذا فإنه ينسب إلى أكثر من مدينة أندلسية، لكن نسبته إلى مرسية أقوى مما عداها.

وبقيت إشارة إلى تاريخ وفاته ، وفى ذلك لاتختلف المصادر كثيراً وقد أورد الذهبى أنه "مات بمراكش ليلة النحر سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، كهلا، وقيل سنة سبع" وقد اتفقت المظان الأخرى على التاريخ الأول (سنة ٥٨٨)

ورأينا ابن خلكان ينص على التاريخ الثاني (٥٨٧) وهناك اتفاق على أنه توفي بمراكش وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وبذا يتحدد تاريخ مولده بستة ٥٣٥ هـ .

ولم يرد فيما فحصنا من أعمال أى إشارة لمؤلفات لابن مجبر عدا ديوانه الذى عرفنا أنه كان ضخما ، فى سفرين ، وهذا الديوان ضائع الان ، ولانملك من شعره إلا ماورد فى ثنايا ترجمته هنا وهناك ، واحتفظت مجموعة "زاد المسافر" بأوفر قدر من شعر ابن مجبر (قرابة ست صفحات) وفى "الروض المعطار" عدد لا بأس به من الأبيات .

وعلى الرغم من ضآلة الفسر الذى وصل إلينا من شعر هذا الشاعر الكبير فإن فيه مايكشف عن سماته العامة من حيث مادة هذه القصائد وقيمتها الفنية.

ومن إبدىهى أنه - وقد كان شاعر البيت الموحدى - سيئون شاعر مديح فى المقام الزول ، وسيأتى شعره حافلا بأنباء الانتصارات ومنازلة الأعداء وقهر المدن فى الأندلس وفى المغرب ، خاصة على زمن عقب بن يوسف ابن عبد المؤمن الذى شهدت أيامه عشرات المعارك الضارية ، فمن ذلك قصيدته:

أسائلكم لمن جيش لهام

طلاتعه الملائكة الكرام

وقد ذكر الحميرى أطرافا منها عند الحديث عن "حمة مطماطة" ثم عاد إليها عند الحديث عن "عمرة" وهى فحص بأحواز قفصة هزمت عنده جيوش يعقوب بن عبد المؤمن ، ووقع فريق من كبار قواده فى الأسر ولجأمن جرح منهم إلى قفصة طمعا فى أن يجدوا الملاذ عند ابن غانية ولكنه نكل بهم ، ووصلت أنباء الهزيمة إلى تونس فاستشاط يعقوب بن عبد المؤمن غضبا ، وخرج بجيوشه للملاقاة جيوش ميورقة والأغزاز الذين أوقعوا برجاله الهزيمة عند "عمرة" ، وكان له النصر

على أعدائه عند حمة مظماطة - على مقربة من قابس، وعلى أثر هذا الانتصار
قال ابن مجبر قصيدته تلك التي أوردنا مطلعها، والتي يقول فيها:

تجاذب خيله اليمن اغتباطا
بعصمته ويخطبه الشأم
ويعطو المسجد الأقصى إليه
وشرف نحوه البيت الحرام

ومنها:

مضى متقلدا سيفى مضاء
هما الإلهام والجيش اللهام
فسل ما حل بالأعداء منه
وكيف استئصل الداء العقام
لقد برزت إلى هول المنايا
وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسى الغز عنها
فليست تدفع القدر السهام
كأن الحرب كانت ذات عقل
صحيح لم يحل به سقام
فأفنت كل من دمه حلال
وأبقت كل من دمه حرام

ولابن مجبر قصيدة أخرى بائية ترتبط ارتباطا وثيقا بوقائع استيلاء
الموحدين على قفصة، والصراع بين العرب وابن عبد المؤمن وعلى بن غانية،

وكان يوسف بن عبد المؤمن قد استولى عليها بعد حصار عنيف فى سنة خمس وسبعين وخمسائة، وفى عهد يعقوب بن عبدالمؤمن نجح ابن غانية فى الاستيلاء على بجاية ومليانة ومازونة كما استولى على القلعة وتوزر وقفصة، وقوى مركز ابن غانية بعد هزيمة جيوش الموحدين فى وقعة عمرة إلا أن خروج يعقوب بن عبد المؤمن على رأس جيشه وانتصاره فى موقعة حمة مطماطة وضع حدا لأطماع ابن غانية، وحوصرت قفصة حصارا عنيفا وضربت بأحجار المنجنيق، واستسلمت بعد مجازر وحرائق وطول تخريب ، وفى هذا يقول ابن مجبر :

ماغر قفصة إلا أنها اجترمت

فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

مايالها زار أمر الله حوزتها

فلم يكن عندها أهل وترحيب

وتغنى ابن مجبر باسترداد يعقوب بن عبدالمؤمن لمدينة شلب، وكان ملك البرتغال ابن الرنق (سانشو بن هنريكس) قد حاصر المدينة وخاف أهلها من الهزيمة فسلموها له بكل ما فيها ، وثار يعقوب بن عبدالمؤمن حين وصلت إليه أنباء هذا الاستسلام وخرج من مراكش . سنة خمس وثمانين وخمسائة فسار إلى رباط الفتح وبقى هناك إلى أن اجتمعت جيوشه ، واتجه - بحرا - من قصر مصمودة حتى وصل إلى جزيرة طريف ، وفى قرطبة عقدت له الرايات بمسجدها الجامع ، وفى ذلك أنشد ابن مجبر :

بشراي هذا لواء قل ماعقدا

الا ومد له الروح الأمين يدا

وأقبل النصر لا يعدو مناخيه

فحيثما قصدت راياته قصدا

واستقبلته تباشير الفتح وقد

كادت تكون على أكتافه ليدا

وكان هذا حقا بشيراً بالفتح فإن جيوش الموحدين أحاطت بالمدينة وشدت عليها الحصار ونصبت المجانيق واشتدت وطأة القتال حتى طلب الفرنجة الأمان على أن يسلموا المدينة للمسلمين ، وتم استرداد شلب سنة سبع وثمانين وخمسائة ، وأنشد ابن مجبر في هذه المناسبة قصيدة يقول فيها :

دعا الشوق قلبى والركائب والركبا

قلبوا جميعا وهو أول من لى

وظلنا نشاوي للذى بقلوبنا

نخال الهوى كأسا ويحسبنا شربا

إذا القضب هزتها الرياح تذكروا

قدود الحسان البيض فاعتنقوا القضبا

وهناك نصوص أخرى مدحية فى الخليفة يعقوب أو فى بعض أبناء البيت الموحدى، مما لا يرتبط بأحداث كبرى، مثل التهنئة بإبلال من مرض أو نحوه ، ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن شاعرنا توارت ذاته فى خضم متابعة الوقائع وإزجاء أبيات المديح ، بل إننا نحس فى مواضع كثيرة من شعر المديح نفسه بهذا الملمح الذاتى ينثال شفيفا متوهجا كما فى قوله :

أتراه يترك العذلا

وعليه شب واكتهلا

كلف بالغيد ما علقت

نفسه السلوان مذ عقلا

غير راض عن سجية من

ذاق طعم الحب ثم سلا

نظرت عيني لشقوتها

نظرات وافقت أجلا

غادة لما مثلت لها

تركنتى فى الهوى مثلا

وهى قصيدة جميلة احتفظ ابن خلكان باثنين وثلاثين بيتا منها ، وأورد بعض أبياتها الذهبى فى سير أعلام النبلاء وصفوان فى زاد المسافر وابن شاعر فى الفوات الخ... فهى - على هذا - أشهر قصائد ابن مجبر ، ويمضى مقطعها الغزلي على هذا المنوال الراقص المفعم بالبساطة وقوة التأثير .

ومن أجمل قصائده قوله :

سأستجدى صغيرا من كبير

وأرغب فى حصاة من ثبير

وفىها حديث عن فاقتة ووحدته وغربته ، ووصف جواده الذى أضناه الهزال من شدة الجوع وطول التسيار فى البلاد :

ووجه العذر فى الأسفار باد

فلا أحتاج فيه إلى سفور

رأيت الحبة البيضاء عزت

فكيف يسير بي طاوى المصير

متى أصفى إلى تصهال طرف

يجبه بالعويل وبالزفير

وأورده المناهل وهي زرق
فيصدر بي عن الماء النمير
وإن أصفر ليشرب قال مهلا
أصفر الجوف يشرب بالصفير؟
أحس بوسق أبعرة رأها
فأقبل يرتعى بحر البعير
ورام يسير من طرب إليها
فقيده الهزال عن المسير

وفيما يبدو أن ابن مجبر كان مقتونا بوصف الخيل، وفي نفع الطيب اثنا عشر بيتا يصور فيها خيل الخليفة الموحدى بألوانها المختلفة وانطلاقاتها العاصفة وصورها المتألقة :

ترى كل طرف كالغزال فتمترى
أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سره
فريته مهرا وهي تحسبه خشقا
تناوله لفظ الجواد لأنه
إذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومن المقطوعات الجميلة التي تصور فاقته :
وقائلة تقول وقد رأتنى
أقاسى الجذب فى المرعى الخصب

أما عطف الفقيه وأنت تشكو
له شكوى العليل إلى الطبيب؟
وقد مر الثناء بمعطفيه
كما مر النسيم على القضيب
فقلت : على شكر وامتداح
وليس على تقليب القلوب

ولابن مجبر مقاطع في الحكمة ، يجسم فيها المعنى من خلال صور
واقعية بسيطة معبرة مثل قوله :

ليت الشباب الذي ولت غضارته
أعطاني الحلم فيما كان أعطاني
فلم تكن منة للشيب أحملها
ولم يكن من سروري بعض أحزاني

وقد عده المقرئ مما ينبغي أن يفاخر به أهل المغرب أهل المشرق، وذكر
فنونا من ارتجالاته ودريته في الوصف خاصة وصفه لمقصورة المسجد الجامع
بمراكش ، وكانت مشيدة وفقا لتصميم هندسى بارع بحيث تضم الخليفة ووزراءه
عند الصلاة، حتى إذا ما انصرفوا اختفت المقصورة .

والحق أن أوجه البراعة أرحب من أن تحصى عند ابن مجبر، وانظر إلى
قوله من قصيدة في مدح يوسف بن عبد المؤمن :

إن خير الفتوح ما جاء عفوا
مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

تجد الشطرة الثانية تنفت في المعنى حيوية لا تباري من خلال الإشارة
إلى أمر عادى كثيراً مايقع فى الحياة اليومية ، ومثل قوله فى ضرورة اللين
عند معاتبه الصديق:

وعاتبه لكن رويدا كما

تعض على الطفل عند اللعب

واللغة عنده تذوب رقة عندما يعرض لمواقف الغزل وتنداح حينئذ
الموسيقى والصور المتألقة ، على نحو ما فى قوله :

وزائرة والليل ملق رواقه

ومن أين للظلماء أن تكتم القمر ؟

حدرت نقاب الصون عن صفح خدها

فياحسن ماانشق الكمام عن الزهر

ولم يأت التساؤل فى الشطرة الثانية عبثا ، وكذلك صيغة التعجب فى
البيت الأول، وانظر كذلك إلى أسلوب الاحتجاج فى مثل قوله مشيرا إلى مصرع
عدد من رجالات الدولة بمن طواهم البحر:

إن الحمام الذى فى البحر غالهم

قد غال عثمان ذا النورين فى الدار

وبذا ينجح فى أن يعبر عن عشرات الأفكار التى تدور حول مصير
الانسان وحول القضاء والقدر والحياة والموت ، ينجح فى التعبير عن كل هذا من
خلال الصياغة الشعرية التى تعتصر المعانى وتخزن التجارب لتصبها فى سلاسة
وعفوية خلال البيت الذى يتحدث عن مسألة من المسائل ولكن معناه ينقلت من
إسار الجزئية الواحدة ليعبر عن الموقف الانسانى ، متجاوزا اسوار الزمان والمكان
والأحداث .

أبو بكر بن زهر (الحفيد)

بما لا شك فيه أن اسم "ابن زهر" من المفاخر التي ظل التراث الأندلسي يباهى بها زمنا (١) ، فقد اقترن هذا الاسم بالعلم والأدب وسار جيلا بعد جيل، يحوطه التقدير والمهابة.

ورأس هذه الأسرة الفقيه محمد بن مروان بن زهر (ت ٤٢٢ هـ) ، الذي سطع نجمه في إشبيلية مع بداية ظهور دولة بني عباد، إذ كان بحسب تعبير ابن بسام "أول من تشنى عليه الخناصر، وتشير إليه القلوب والنواثر، وتفتقر إلي مألديه الألباب والبصائر"، فكان أن لقي من حسد بني عباد وسوء ظنهم فيه ما اضطره للهجرة إلى شرقى الأندلس "وأقام بها بقية عمره، بين جاهه ووفره ، وفي حصن حصين من سلامة سره وجهره" (٢).

ثم كان ما كان من أمر ابنه أبي مروان عبد الملك بن محمد "فما بلغ أشده حتى سد مسده، بل ما خلع ثمائه حتى استوفى مكارمه، وورث مبادئه وخواتمه، ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم من الطب وغيره من العلوم ، فجمع شعاعها، واستوفى أجناسها وأنواعها ..".

(١) في رسالة الشقندي في المفاخرة بالأندلس (وترد في نفع الطبيب ج ٣ ص ١٩٣) يقول مخاطبا أهل المشرق "وهل لكم في الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة ومثل بنى زهر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نسق؟".

(٢) انظر عنه: الذخيرة ، ص ٢١٩ من القسم الثاني ، والمطرب ص ٢٩٣ ، والوافى ج ٥ ص ١٦ وبقية الملتبس ص ١٢. والصلة ص ٤٨٧ .

ولأبى مروان هذا رحلة مشهورة للمشرق و "تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان" على حد تعبير ابن دحية (١) وناهيك بذلك مكانة وعلو شأن وذيوع شهرة .

ثم نأتى للجيل الثالث من هذه الأسرة النبيلة، وهو الوزير أبو العلاء زهر ابن عبدالملك. يقول عنه ابن بسام: "وهو وان كان فى وقتنا البحر الذى لم يبلغ بالتحصيل، والصبح الذى لا يفتقر معه إلى دليل، فإنى أجريت ذكره فى نفس هذا الديوان نفسا، واجتلبت قطعة من شعره أقمتهما للأداب عرسا" (٢) ويقول ابن دحية انه كان "وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه" .

وكتب التاريخ والأدب حافلة بما يكشف عن أخلاق أبى العلاء بن زهر، وعلو باعه فى ميادين العلم والأدب فى الذخيرة أن المعتمد بن عباد، بعد أن دالت دولته ووقع فى الأسر بأغمات ، لجأ لأبى العلاء بن زهر ليعالج بعض كرماته من علة أصابتها، وكان إذ ذاك فى المغرب فـ "سارع إلى تأتى مطلوبه ، ولم يلتفت إلى ما كان سلف بين سلفيهما من معانٍ ، قضتها صروف الزمان، واقتضتها حماية السلطان، فلاطف علاجها ، ورفق قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاء الطويل" وكانت بين الرجلين، على اثر ذلك، مراسلات شعرية غاية فى البراعة .

ثم نصل إلى أبى مروان: عبدالملك بن زهر (المتوفى سنة ٥٥٧)، صاحب كتاب "التيسير فى الطب" ، والذي يذكر أحيانا تحت عنوان: التيسير فى المداواة والتدبير، وقد شرقت شهرته وغربت ، حتى أنه "أثر أثرا بليغا فى الطب

(١) له ذكر فى العديد من المصادر مثل الذخيرة ، السابق، والذيل والتكملة ج ٥ ص ٣٧ وعيون الأنبياء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٤ .
(٢) الذخيرة ، السابق وانظر المطرب ص ٢٠٣ .

الأوربي ، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية " ^(١) واشتهر اسمه عندهم Avenzoar على نحو يكاد يدانى شهرة ابن سينا وابن رشد .

وقد نوه جونثالث بالثيا طويلا بفضلها ، واعتبره سباقا في مجال الفصل بين الجراحة والصيدلة والطب الباطني ، واعتبر كتابه "التيسير" - الذي أهده لابن رشد - "خير ما ألف العرب في الطب العربي ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية، وهو يأخذ بما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة".
هذه خطوط سريعة عن هذه الأسرة النبيلة التي اجتمعت فيها عبقرية العلم وعبقرية الأدب والفضل والنباهة جيلا بعد جيل .

ابن زهر (الحفيد) :

وهكذا نصل الى محمد بن عبدالمملك بن زهر، الملقب بالحفيد (ربما على اعتبار أن أباه كان وزيراً ، وكان جده وزيراً أيضاً ، وإلا فإن أبا العلاء بن زهر أحق بلقب الحفيد من أبي بكر هذا ...)

وأبو بكر بن زهر (٥٧٧-٥٩٦) يعد ولا ريب أحد جهابذة القرن السادس في ميادين شتى من أدب ولغة وعلم وسجايا. يقول عنه تلميذه ابن دحية: "وكان شيخنا الوزير أبو بكر - رحمه الله - بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين . كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة

(١) راجع مادة ابن زهر في دائرة المعارف الإسلامية وهناك دراسة جامعة عنه وعن أسرته (بالفرنسية) كتبها جورج كولان. ومن مراجعه : طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٦ ، والتكملة ص ٦١٦ والمغرب ج١ ص ٢٧ الخ ..

العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند اصحاب المغرب (يقصد الموحدين) مع سمو النسب وكثرة الاموال والنسب " ، ويقول عنه ابن الأبار فى "التكملة" إنه :

"انفرد بالإمامة فى علم الطب فى وقته، مع الحظ الوافر من الاداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدث بالمقامات عن أبيه عن الحريرى، وإليه كانت رئاسة بلده ، وكان لا يعدله أحد من رجالات الأندلس فى الحظوة عند الأمراء ورفع المكانة، سمحا جوادا نفاعا بجاهه وبماله، وما أكثر ما أثنى مؤرخوه على تدينه وحفظه للقرآن الكريم ولصحيح البخاري بأسانيده وامتونه، كما أثنوا على ثقافته الأدبية. وقد مر بنا أنه كان يحفظ شعر ذى الرمة كله

ولا جدل فى أن ملكة الحفظ كانت عنده قوية للغاية ، ففى خبر آخر تأتي إشارة إلى أنه كان يحفظ شعر المتنبي بتمامه ا

ولم يحل تدينه أو مكانته الاجتماعية الشامخة دون خوضه فى فنون الشعر من غزل وخمريات ونحو ذلك، وقد ضاع شعر أبى بكر بن زهر ألا قليلا، فمن ذلك ماجاء فى "زاد المسافر" :

وموسدين على الكف خدودهم

قد غالهم شرب الصبوح وغالنى

مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم

حتى سكرت ونالهم مانالنى

والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها

إنى أملت إناسها فأما اى ا

وأيضاً قوله ، من "زاد المسافر" :

مغنى خصيب وباب مرتجج أبدا

والدف والزق والابريق والطاس

هذى الخلاعة لا شئ سمعت به

فاستغنم اللهو إن العمر أنفاس

ولى حبيب مليخ الدل ذو غنج

حلو الشمائل ماقى لثمه باس

فإن تعذر أو عزت مطالبه

فالكاس والكيس : وسواس وخناس !

ولكن لابن زهر شعرا فى الاعتبار بالأيام ، ولعل ذلك من نتاج

الشيخوخة - وقد عمر ابن زهر طويلا - فمن ذلك قوله

الموت جزار بلا مديّة

لا أسد يبتى ولا ينقله

ولا شريفا من بنى هاشم

ولا وضيعا من بنى قندلة

ويقول :

لاح المشيب على رأسى فقلت له

الشبب والعيب لا والله مااجتمعا

باساقى الكأس لا تعدل إلى بها

فقد هجرت الحميا والحميم معا

وقد يتجسم الموقف عنده فى شكل "مشهد" يذكر من بعض الوجوه
بشعر يحيى الغزال، وقد أورد له صاحب وفيات الأعيان هذا النص:

إنى نظرت الى المرأة إذ جلّيت
فأنكرت مقلتاى كل مارأتا
رأيت فيها شبيخا لست أعرفه
وكنت أعهد من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان، متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة.
ان الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى ياأخى وقد
صارت سليمى تنادى اليوم ياأبتا

ولابن زهر براعة فى الموشحات بخاصة، وفى ذلك يقول صاحب "المطرب":
"والذى انفرد شيخنا به وانقادات لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء خوله وأتباعه:
الموشحات، وهى زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته، وهى من الفنون التى
أغرقت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء
المشرق ؛ على أن للموشحات حديثا آخر، يطول فيه اللقاء مع ابن زهر ...

الموشحات الأندلسية

لعل الموشحات أهم الأشكال التي تفتقت عنها القريحة العربية،
ففي سعيها الحثيث نحو الابتكار والتجديد فقد ظهرت قبلها وواكبها ألوان
أخرى متنوعة، بالفصحى وبالعامية، مثل المسمطات والدوبيت... الخ،
ولكن كثيراً منها انطوت صفحته منذ أمد بعيد، أو عاش مغمور الشأن
ضئيل الأثر، أما الموشحات فإنها ازدادت مع الأيام رونقاً، وشمل تأثيرها
العالم العربي كله، بل والأكثر من هذا أنها تعدت نطاق العالم العربي،
وظهرت على غرارها موشحات بالعبرية، فضلاً عن أن جمهرة من علماء
الغرب تذهب إلى أن الموشحات (والأزجال) تمثل الركيزة التي بنيت
على أساسها أغاني التروبادور، إلى غير ذلك من قضايا تتجاوز نطاق هذه
الكلمة.

والموشحات - في واقع الأمر - فن أندلسي خالص، بمعنى أنه لم
يعرف في صورته الناضجة المكتملة إلا على أرض الأندلس، وليس في
هذا الرأي ما يتعارض والقول بأن هناك أعمالاً ظهرت بالشرق، يعدونها
بمشابهة الإرهاص أو التمهيد لظهور هذا اللون الجديد، الذي بزغت شمس في
أخريات القرن الثالث الهجري، على يد شعراء مثل محمد بن محمود (أو
حمود) القبيري، ومثل مقدم بن معافي، الذي ينتسب بدوره إلى قبيلة،
إحدى القرى الواقعة قرب قرطبة.

ويضم كتاب «الذخيرة» لابن بسام أقدم إشارة وصلت إلينا عن
طور نشأة هذا الفن:

«وأول من صنع هذه الموشحات بأفئتنا واختراع طريقها - فيما
بلغني - محمد بن محمود القبيري الضرير، وكان يصنعها على أشطار من
الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريف المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ
العامي أو العجمي ويسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها
ولا أغصان».

وهذه الفقرة خاصة بالمصطلحات غير محددة الدلالة ، وفيها إشارة عابرة إلى أوزان الموشحات الأولى وما كانت عليه من ارتكاز على مقطع عامي - شعبي ؟ أو اعجمي (بالرومانث ، لغة الأسيان الأصليين) ، وبها تلميح إلى شكل لا «تضمين» فيه ولا : «أغصان ، الصورة كلها تتسم بالغموض ، ومع ذلك فإنها تترك في النفس انطباعاً ما بأن شكل الموشحة القديم كان شديد البساطة ، ليس فيه هذا الإكثار من الأجزاء في الأقفال والأبيات ، الذي يلحظ في كثير من النصوص التي ألفت في فترات لاحقة ، ومعنى آخر إن صورة الموشحات في مرحلة تكوينها كانت أقرب إلى طبيعة الأغنية الشعبية من حيث بنائها على «الأعاريف المهملة غير المستعملة» ، وارتكازها على «اللفظ العامي أو العجمي» ، ولا خلاف على أن المقصود بكلمة «اللفظ» هنا ذلك المقطع الختامي ، الذي تصل فيه الموشحة إلى ذروة توهجها ، وهو ما أطلقت عليه تسمية الخرجة .

ويتلاقى هذا الفهم مع قول ابن سناء الملك :

«والخرجة هي ابزار الموشح وملحه ، وسكره ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والختامة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية» .

ثم يجيء فريق من الشعراء يجددون في هيكل الموشحة ، منهم يوسف بن هارون الرمادي ، الذي يذكر ابن بسام أنه «أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز» ، ومنهم عبادة بن ماء السماء الذي «أحدث التضمير» - ؟ - «ذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمونها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز» .

وتكون النقلة التالية إلى عبارة شهيرة لابن خلدون تقول :

«وأما أهل الأندلس ، فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التضميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريفها المختلفة ، فيسمون المتعدد منها بيناً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي

تلك الأغصان وأوزانها، متتالياً فيها بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب».

وعند هذا الحد تكون قد تجمعت بين يدي القارئ معظم الخيوط المتصلة بهيكل الموشحة ومصطلحاتها، ولكن ينبغي ملاحظة ما تتميز به الموشحات من مرونة، كذلك فإن المصطلحات التي تتردد (التصغير، التصغير، التضمين - هل تعني كلها معنى واحداً؟ - الأغصان، الأسماط) مجال لاختلاف وجهات النظر إلى حد بعيد، يضاف إلى هذا ما يظهر في حقب لاحقة من مصطلحات جديدة مثل «الدور» وقدر موفور من التعبيرات المستمدة من الاصطلاحات الموسيقية، بحكم الصلة الوثيقة بين الموشحات والغناء، ولا يبقى إلا الإشارة لاستقرار دلالات «القفل» و«الخرجة»، فقد أفلتا - أو كادا - من دوامة الجدل والخلاف.

ولا تثير مسألة الموضوعات التي تعالجها الموشحات كثير الجدل، وقد حسم ابن سناء الملك القضية عندما قال إنه «يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد، وما كان فيها في الزهد يقال له المكفر» وساق ابن خلدون رأياً مشابهاً: «وينسبون فيها ومدحون كما يفعل في القصائد» ولكن هذه الأقوال لا تبين طبيعة التطور الذي طرأ على الموضوعات، كما أنها لا تحدد مدى مناسبة هذه الموضوعات لطبيعة الموشحات.

والتصور الطبيعي أن الموشحات بدأت أول ما بدأت بمعالجة موضوعات الغزل والوصف والخنين والخمريات، أي تلك الفنون شديدة الصلة بالموسيقى والغناء، ثم جاء طور لاحق أخذت تعالج فيه بقية الأغراض المألوفة في القصائد، كالمدح مثلاً (أما الرثاء والهجاء فإنها لم يشغلا إلا مكانة ثانوية)، ولا يأتي - في العادة - إلا مسبقاً يتمهيدات غزلية أو وصفية أو نحو ذلك.

أما الموشحات الزهدية والدينية فإنها تمثل طوراً تالياً تبرز فيه أسماء عديدة مثل أبي مدين وابن عربي والششتري وابن الصباغ...، وعلى أيدي

هؤلاء يعود للموشحة جانب من انتمائها لليئة الشعبية وللغناء، وتنداح هذه الموشحات في حلقات الذكر والمتروشين، منفلة في أحيان كثيرة من قواعد الفن وفصاحة اللغة، مرتحلة في ركاب هذه المواكب الهائلة في فجاج الأرض.

ولربما كان من الضروري أن تعرج هذه الكلمة على أعلام التوشيح في الأندلس، وهنا ستكون لنا أكثر من وقفة:

وقفة أولى تتناول مرحلة النشأة، حيث تبرز ثلاثة أسماء:

محمد بن محمد القبري، ومقدم بن معافي، ثم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، فالمصادر تؤكد أن هؤلاء هم الرواد الأوائل لهذا الفن الجديد، وإن كان الملحوظ أن ابن بسام يسوق اسم محمد بن محمود على اعتبار أنه «المخترع» الأول ثم يضيف:

«وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا» ومعنى آخر أن ابن بسام لا يذكر اسم مقدم بن معافي في هذا الصدد (بل أن اسم مقدم لا يرد على الإطلاق في جميع أجزاء الذخيرة)، بينما يجيء في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن سعيد، ونقل عن الحجارى صاحب «المسهب»:

«أن المخترع لها — للموشحات — بجزيرة الأندلس مقدم بن معافي القبري، من شعراء الأمير عبد الله بن الرواني، وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد».

ويبقى بعد هذا أن المعلومات عن محمد بن محمود وعن مقدم بن معافي من السندرة بمكان، وإذا كان الاسم الثالث — اسم ابن عبد ربه — ملء السمع والبصر بفضل كتابه «العقد الفريد» فإن صلته بفن التوشيح تبدو شديدة الغموض، والشيء المؤكد — على كل حال — أن المصادر لم تحتفظ البتة بأي نموذج من تأليف هؤلاء الرواد، مما يجعل الحديث عن الموشحات الأولى محفوفًا بالصعاب، لا يعتمد فيه إلا على بعض العبارات الموثقة في «الذخيرة» و«المقتطف».

ومن الطبيعي أن الصورة، في المرحلة التالية، تأتي أكثر وضوحاً، والإشارة هنا للجيل الثاني من الوشاحين الذي حمل الراية بعد جيل الرواد، وهذا الجيل الثاني يضم أسماء شهيرة في تاريخ الأدب الأندلسي مثل يوسف بن هارون الرمادي، وابن ماء السماء، وابن عبادة لكن تظل هناك - مع ذلك - ملامح يشوبها الغموض، فإننا لا نملك نماذج إلا لاثنين من سبعة وشاحين يذكرون في هذه المرحلة، فضلاً عن أن قدراً من الاضطراب يسيطر على المعلومات والنصوص المعروفة لهذين الوشاحين (ابن ماء السماء وابن عبادة)، وربما أدى المزيد من التنقيب في التراث الأندلسي إلى الكشف عن معلومات تزيل ما يرين من لبس في هذه الناحية.

ومن حسن الحظ أن الموشحات في المرحلة الثالثة - التي تستغرق فترة القرن السادس الهجري كله - تكون قد نضجت كل النضج، واستقامت لما كل قواعدها الفنية وبرزت أسماء رنانة مثل ابن بقل والأعمى التطيلي وابن زهر (الحفيد)، ولعت نصوص فياضة بالسحر والوهج
مثل:

بأبى ظبى جى
نكثفة أسدغيل
ومثل:

ضاحك عن جمان
سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان
وحواة صدى

وتنساب نغمات شاردة، يمتزج فيها الحوى والغزل والافتتان بالطبيعة كما في موشحة ابن زهر:

حيى الوحوة الملاحا
وحشى نخل لغبون
قطعه تهره

أيتها الساقى البك المشتكى كم دعوناك وإن لم تسمع

والخلاصة أن هذا الفن يصل الى قمة تمامه في القرن السادس الهجري، وقد احتفظت مجموعات مختلفة مثل «دار الطراز» و «توشيح التوشيح»، و«جيش التوشيح» بقدر وفير من النصوص الجميلة التي تنتمي لهذه الفترة. وتجيء مرحلة تالية - في القرن السابع الهجري - تبدأ فيها الموشحات الصوفية في التدفق، وتظهر هنا وهناك بعض سمات الخروج عن القواعد المتفق عليها، على أن التقاليد الأصيلة تظل ماثلة عند عدد من المبرزين في التوشيح، مثل ابن سهل الإشبيلي صاحب النص المعروف:

هل درى ظنبي الحمى أن قد حَمَى
قلبا صبَّ حمله عن مكنس

وصاحب موشحة «رحب بضيف الأتس» التي لم تشتهر شهرة «هل درى»، ومع ذلك فإنها لا تقل عنها جمالا، فضلا عن أنها تختلف في النفس أثرا يشبه - من بعض الوجوه - ما تخلفه قراءة «رباعيات الخيام» من أصداء وعبق وحرارة.

وآخر حلقة تشمل شعراء القرنين الثامن والتاسع، وهي حقبة تنتهي سنة ٨٩٨هـ بانتهاء الهيمنة الاسلامية على آخر مدينة أندلسية هي غرناطة، وهكذا يقدر لأصداء الموشحات أن ترتحل بعيدا عن أجواء الحمراء ومغاني غرناطة، كما ارتحلت من قبل عن قرطبة وإشبيلية وطليلة وغيرها من مدن الأندلس.

ولم تخل هذه المرحلة من وشاحين مجودين مثل أبي حيان الغرناطي وابن خاتمة الأنصاري وأبن زمرك، على أن أشهرهم جميعا لسان الدين بن الخطيب الذي يتألق في فن التوشيح على نحو فريد، وبمحبته أنه صاحب:

جاءك الغيث إذا الغيث همي

بازمان الوصل بالأندلس

وقد عارض فيها موشحة «هل درى ظنبي الحمى» لابن سهل، لكن

المعارضة فاقت الأصل شهرة، وأصبحت معلما بارزا من معالم فن التوشيح إلى يومنا هذا.

وللرجل نفسه نصوص أخرى لا تقل براعة عن «جارك الغيث» مثل موشحته:

قد حركَ الجُلُجُلُ بآزى الصبّاخِ والفجر لاخِ

فيها غرابُ الليلِ حُكَّ الجناخِ

ومن الغريب حقا أن موشحته:

رُبَّ ليلٍ ظفِرتُ بالبدرِ ونجومُ السماء لم تَدِرِ

تجىء في نفع الطيب مصدرة بـ :

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى: ومما قلته من الموشحات التي انفراد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها «فهل طمس رسم الموشحات حقا في الحقبة التي عاش فيها ابن الخطيب؟ لا نظن، ولعل الرجل كان يقصد أن الأيام عدت على ذلك العهد الزاهي الذي كانت فيه الموشحات تتردد في أبهاء القصور، وبجالي اللهو والطرب، وأنه يقصد أن الأجيال اللاحقة لم تعد تبعد في هذا الفن نصوصا من نمط ما أبدع من قبل ابن بقي والتطيلي وابن زهر.

وهكذا تكون رحلة الموشحات على أرض الأندلس قد انطوت بعد فترة دامت زهاء خمسة قرون، استطاعت فيها أن تضيف لقيثارة الشعر العربي وترا جديدا قوامه التوهج والصفاء، والتعبير عن خوالج النفس، والإحساس العارم بالحب والطبيعة والحياة.

نماذج من الموشحات

• عبادة بن ماء السماء (المتوفى نحو سنة ٤٢٠ هـ):

— ممن ولسى في أمة أمرا ولم يمدل
— حب المها عبادة من كل بسام السواري

• ابن عبادة القزاز (المتوفى نحو سنة ٥٠٠ هـ):

— رح للسراج وباكرا بالمعلم المشوف
— كم في قلدود البيان تحست اللمم

• ابن اللبابة (المتوفى سنة ٥٠٦ هـ):

— شاهدي في الحب عن حرفي أدمه كالجمر تنذرف
— هلا عدولي قد خلعت العذو لا اهـنـنـذار

• ابن أرفع راسه (أوائل القرن السادس الهجري):

— من علق السرطا في أذن الشعري

• ابن ليون (أوائل القرن السادس الهجري):

— من أطلع البدر في كمال غصن اعتدال

• الكيت البطليوس (النصف الأول من القرن السادس الهجري):

— لاح للروض نل غر البطاح زهر زاهر

• ابن عيسى المرسى الحجازي (النصف الأول من القرن السادس الهجري):

— من في بطبي ربيب بصيد أمه الضياهي

• الأعمى التطيلي (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ):

— دمع صفح وظلوع حرار ساء ونسار

— ضاحك عن جان سافر عن بسدر

• أبو بكر الأبيض (المتوفى بعد سنة ٥٢٥ هـ):

— من سق عينيك كأس المدام يسامني المسهام

• ابن الزقاق (المتوفى سنة ٥٣٠ هـ)

— خذ حديث الشوق عن نفسي وعن السمع الذي هما

- ابن رحيم (المتوفى نحو سنة ٥٣٠ هـ):
- نسيم العبا أقبل من نجد لقد زادنى وجدا على وجد
- أبو بكر بن بقل (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ):
- ساعدونا مصباحينا نرتشفها قد ظمينا
- مالى شمول إلا شـجـون
- أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ):
- ذهبت شمس الأصيل فسطحة النهر
- أبو عبد الله بن شرف (المتوفى سنة ٥٧٠ هـ):
- يسارية المقعد من يفسد
- ابن مالك الترقسطى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ):
- ماذا حملوا فؤاد الشجى يوم ودعوا
- ابن زهر الخفيد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ):
- أما الناقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
- حى الوجوه الملاحا وحى سرد المعيون
- يحيى الدين بن عربى (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ):
- عندهما لاح لعينى المتكا ذبت شوقا للذى كان معى
- ابن سهل الإشبلى (المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ):
- هل درى ظبى الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكس
- ابن خاتمة الأتصارى (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ):
- قم هاتها قهوة كنعم مهجور
- لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):
- يا حادى الجمال مرج على سلا
- ابن زمرك (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ):
- نسيم خرنسطة عليل لكنه يرى العليل
- اللخمي الفرناطي (من شعراء القرن التاسع الهجرى):
- حياك بالافراح داعي الصباح قم لاصطباح
- المنصور السعدى (المتوفى سنة ١٠١٢ هـ):
- عطر الأرجاء لما نسما شمال الصهاة مد الغلس

● عبادة بن ماء الساء (نحو سنة ٤٢٠ هـ):

٠١

مَنْ وُلِيَ فِي أُمَّةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يُعْزَلْ إِلَّا لِحَاطِطِ الرِّشَاءِ الْأَكْحَلِ

جُرِزَتْ فِي (١) حَكِيمِكَ فِي قَتْلِي يَا مُشْرِفُ

فَانصَفِ فَوَاجِبٌ أَنْ يَنْصَفَ الْمَنْصِفُ

وَأَرَأَيْتَ فَإِنَّ هَذَا الشُّرْقَ لَا يَرَأُفُ

عَلَّيْ قَلْبِي بِذَلِكَ الْبَارِدِ السَّلِيلِ يَنْجَلِي (٢) مَا بَفُؤَادِي مِنْ جَوِّي مُشْعَلِ

إِنَّمَا يَبْرُزُ كَيْ يَوْقَدُ نَارَ الْفَتَنِ (٣)

صَلَّتْنَا مَصْنُورًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ

إِنْ رَمَى لَمْ يُخْطِ مِنْ دُونَ الْقُلُوبِ الْجُنَيْنِ

كَيْفَ لِي تَخْلُصَ مِنْ سَهْمِكَ الْعُرْتَلِ قَبْلِ وَاسْتَبَقَنِي حَيًّا وَلَا تَقْتُلِ

يَا سَنَا الشَّمْسِ وَيَا أَبْهَى مِنَ الْكُوكَبِ (٤)

يَا مُنْتَى السِّنْفِ وَيَا سَوْلِي وَيَا مَقْطَلِي

هَذَا أَنَا حَلَّ بِأَعْدَائِكَ مَا حَلَّ بِسِي

عُدَّتِي مِنْ أَلْمِ الْهَيْجَرَانِ فِي مَعَزِلِ وَالْحَلِّ فِي الْحُبِّ لَا يَأَلُّ عَمَّنْ بَلِي

● ترد في «التوشيع» ص ١١٣ و «الفوات» (ط إحصان عباس) ١٥١/٢
منسوبة لابن ماء الساء وفي «الوافي» ١٨٩/٢ منسوبة لابن القزاز

(١) تونج : جزت

(٢) التوشيع : بنجل

(٣) الوافي : يرد. الفوات : ترز. توقد

(٤) الوافي : وباسني

أنت قد صيرت بالحسين من الرشد غنى
لم أجسد في طرفي (٥) حبك (٦) دينا على
فاتشدا وان تشا في قتلي شيئا قشني
أجل ووالني منك يد المفضيل (٧) فهني لي من حسناي الزمن المشبل

ما اغتذى طرقتي إلا بسنا ناظرينك
وكسدا في الحب ما بي ليس يخفي عليك
ولسدا أنشد والقلب رهين لديك:
ياعلي سلطت جفنيك على مقتلي فابق لي قلمي وجد بالفضل ياموللي

٢

حُب المَهَا عِبَادَة من كلّ بسام السوار
قر يطلع من حسن آفاق الكمال حسنة أبداع
لله ذات حسني ملبحة المَحَيَا
لها قوام غصن وشنفها الشريَا
والشفر حُب مُزِن رُضَابُه الحُمَيَا
من رشفه سمادة كأنه صيرت المقار
جوهر رصع يسقيك من حلو الزلال طيب المشرع
رشيقه المعاطف كالغصن في القوام
شهدية المراثفت كالسدر في نظام
دعصية الروادف والخضر ذو انضمام
جواله القلادة معلولة عقد الإزاز
حسنها إبداع من حسن ديك الغزال أكحل المدمع

(٥) الفوات : طرق (٦) الوافي : حبك (٧) الوافي : ندى

• ترد في «الفوات» (ط احسان عباس) ج ٢ ص ١٥٢ ولم نجدها في اي مصدر آخر

ليسلية الذوائب	ووجهها نهاز
مصقولة الترائب	ورشفها عفاز
أصداعها عقارب	والخند جلتاز
نساديست: وافوادة	من غادة ذات اقتدار

لحظها أفتنغ من حل مصقولة التصاب من الفتى الأشجع

تفرجل الشهود	في مرمير الصدور
يترقى على العقود	من لذة النحور
ومتقلة وجيد	من عمادة سفور
حبنى لما عباداة	أعرد من ذا الفخار
برشاً يرتع	في روض أزهار الجمال
عفيفة الذبول	نقية الشباب
سلاية العقول	أرق من شراب
أضحى بها نحولى	في الحب من عذابى
في النوم لى شراة	وحكمها حكم اقتدار
كلما أمنغ	منها فإن طيف الخيال
	زارنى أمتع

• • •

• ابن عباد القزاز (نحو سنة ٥٠٠ هـ)

نوح للراح وداكر بالمثقليم المشوف
ليس اسم الخمر عندي غبوقاً وضبوخ على الوتر القصيح
إلا من خاء الخد مأخوذاً فاعلم
وراء ريق الشهيد وميم التبتيم
وهيل هذي الحروف المعاطير القم
فكن لله هاجر كي تغدو وتروح بجسم له روح

بالله سقنيها في ودّ الوائق
فإن منه فيها شبه الخلائق
من أهدم الشيبا في المجد الباق
تليد وطريق دوح من عهد نوح وروضة تفوح
هل تخس المدايح من كل ماديح
إلا على الجحاح بنى صمادح
فإبهم مصايح على سوانح
أكارم أكابز حازوا المجد القريح فحسوا بالمديح
محمد بمبيد مرأته قريب
وحولته جنود من آله نجيب
كأنهم أسود في حوفة الخروب
إذا سلوا البواتر فالحن والحنوف والنصر والفتوح وآية تلوح
إذ لاح ابن ميم في جيشه اللجج
ونادي كل قرن باسمه في اللجج
فالتيج تنفي والسيف قد طرب
ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والأبطال نصيح الوثيق يامليح

• دار الطراز، ص ٧١، وأشار إلى الخرجة ص ٣٢، ونسبها لعبادة.

كم في فدود البان تحت اللمن من أقر عواط
بأتمل ويئنان مثل العتم لم تنبر لقاط

لمن الظباء الشمس	فنيضهن الضيفم
ما إن لها من كمنش	إلا القلوب الهيم
القرب منها عرش	والبعد عنها ماتم
تلك الشفاء الأعمس	بخيتي بين الثفرم
لها لخاله نفس	نرئوإلى من ينقم

بأعين السفرلان وتبتنم عن جوقير الأنماط
قضى لها الفيران أن تكنم في مضير الأتياط

أهوى رشاً ساحرا	هواه لي ما أقتله
فقد قسخت طائرا	أحاطه قلبي وله
لم يـزك سنادرا	على هوى ما علة
لما غدا قنادرا	غدا قليل التمذلة
ياحيا كما جائرا	ظلمت من لا ذنبت له

خف سطوة الرحمن اذا حركم بين البري والحاطي
سطوت بالهينان ظلا ولم ينصير يماطي

ياو يبح من شوقا	إلى حبيب قد تلا
قضى بأن يفرقا	في الدمع من قد أمخلا
ظلماً وأن يخفقا	منه الفؤاد المبتلى
كأنما لمسقا	منه على تلك الظلى
فقلت مستنطقا	من ذا الذي أهدى الى

٥ نرد في «دار الطراز» ص ٦٠ (ومقطع منها ص ٢٩) وجاء قسم منها في «ازهار
الرياض» ٢٥٤/٢ و«نفع الطيب» ٣٨٠/٤

فوادي الخفّان فقال ثمّ فلتنظر في الشاطي
 إلى بنود الشوان عدواك ثمّ واستخير أقرابي
 أما تراها منور على قناها خافية
 في جاربات تمون مثل الجياد السابقة
 إنشاء قن في المحون ينشي السحاب الودقة
 سمّت على النجم طول منها فروج بايقة
 إن الشربا تقون وإها لصادقة

ما فوق هذا المكان من الهتم فيه يرى منايطي
 سمّت على كيون منه القدم والمثري موايطي

أفلاك قلك تنيز سمادة للمسلمين
 تسري الدجى وتسير بالفتح والنهر الثمين
 يسوء بعد النذير منها صباخ المنذرين
 نخدي بمدج الأمير إلى بلاد المشركين
 أني نسحا فتطير بمثل أشفار الجفون

وقببتم الخرمان قد انتظم كأسطر الأمشاط
 والبسحر كالبركان قد اضطرم بمشقر الأنفاط
 ومهرجان لنة يوم أنيق منظره
 بحر حكي رملته من كل طيب عنبره
 والشاط قد حلة عمم وعسكره
 مرگسا رجلة فلکاً عكثها فتمرة
 فقال عبده لنة متسحين ما يبصرة:

ما أملح المهرجان رمل يتيم كالعنبر للسواطي
 والفلك كالعقبان والمعتصم بالمعكر في الشاطي

• ابن اللبابة (المتوفي سنة ٥٠٧ هـ):

• ١

شاهيدي في الحب حُرقي أدمع كالجمر تنذير

تعمجز الأوصاف عن قَمَر (١)
خِذَه يَدَمِي مِن النِّظِيرِ
بِشْرِ بِسْمُو عَلِيَّ البَشِيرِ

قد براه اللد من غلق ما عسى في حسنه أصف

كيف للصبب الكئيب بقا
والكغرى عن جلفنه أبقا
هل يطيق الصبر من عثقا

شاذناً يرمي من الحدق أسها قلبي لها هدف

بأولى التنفيد وكم (٢)
أنا لا أصفى لنصيجكم
في ثلاث قد عصبتكم
غسق داج على فلق في قضيب زانه الهيف
بأبي قن فاق شمس ضحى
وكسا بذر الدجى ملحا (٣)

• ترد في «التوشيع» ص ١٣١ وفي «عقود اللاك» مخطوطة «الاسكوريال» ورقة ٩ وفي «العذارى المائسات» وقال إنها لجمال الدين بن نباته وقيل لابن عزلا (ولعل الاسم الاخير تحريف لابن غرلة الذي كان ذكرناه من قبل وليست هذه الموشحة من جنس ما وصل الينا من موشحاته، اما ابن نباته فان ديوانه لا يتضمن هذه الموشحة ولا حتى معارضة لها).

(١) توشيع: قرى (٢) توشيع: التنفيذ (٣) التوشيع: لها

فدليلي فيه قد وضحا
لوجود الشمس (٤) في الأفق عدم والسدر ينكيف

رُب راض بعد ما غضبا
زارني في غفلة الرقبا
عندها غنيت: واطربا
ياحبيبا بات معنفي ها أنا بالوصلي مُفترِف

٢

هلا عدولي قد خلعت العذار لا اعتذار عن ظبا الإنسي وشرب العقاز
ما العيش إلا حُب طبي أنيس
مهفهف أحوى وحث الكؤوس
من قهوة تحكي شعاع الشمس

كانها في كأسها إذ تدار شعله ناز يقتلها الإبريق قبل السواز

شيئان قلبي فيما ذو غرام
القول سالغيد وشرب المُدام
فلست أصفي فيها للوأم

لا والدي نوح تاج الفخار بحر البحار يبحر جدواه وحامي الديار

المليك المأمون ذو المكرمات
الواجد الفرد الجزيل الصفات
كم ماذح أحبا وكم قد أمان
نهل يُمناه علينا بجاز ثم اليسار تجلودجى العُشربيدل اليسار

(٤) عمود: الدر

• النص في «حيس البوسيج» ص ٧٠

ففي اسمه للنصر والفتح فإن
قد عم أهل الأرض ظمراً نسوان
أصبح في الجود بمير مثان

أنجد ذكره الكريم وغاز في الأمصار حتى حدث فيه حداً القطار

وغادة تشكو بقاء الخليل
عُدّوها تبكي وبوم الرحيل
بصفية البحر وطلعت تقون

يسافرجوني ككرس بون امار ليش الفرار وlish دمار(1)



(1) الخرجة فيه : «اما الفرار وليس دمار»، وهي — ولا شك — مستورة، ولا تتفق مع بقية الاقوال. وفي نسخة حسن حسني عبدالوهاب (صفحة ١٤١).
يسافرجوني ككرس بون امار الفرار ليش وlish دمار
ولا تنقيم على هذه الصورة

• ابن رافع راسه (أوائل القرن السادس الهجري ؟) :

مَنْ عَلَقَ الْفَرْطَا فِي أذنِ الشَّعْرَى وَأَكْفَفَ الْمَرْطَا الْغُضْنَ النَّضْرَا

الْحَسْنَ مَرْجُومٌ عِنْدِي وَمَأْثُومٌ

وَالطَّرْفَ ظَلُومٌ وَالْقَلْبَ مَظْلُومٌ

بِأَبِي رَيْمٍ يَعْشَقُهُ الرَّيْمُ

لَمْ يَأْكُلِ الْخَمَطَا وَلَا رَعَى السَّدْرَا وَلَا رَعَى الْأَرْطَى (١) مَدَّ سَكَنَ الْقَضْرَا

بِاقُومٍ بِي تَيَّاهَ لَمَّا مَعْشُومٌ

الْمَجْرُمِينَ هَجْرَاهُ (٢) وَالذَّنْبُ مَحْمُومٌ

يَدْرِي الَّذِي يَهْوَاهُ أَنَّهُ مَقْتُومٌ

أَمَاتَنِي غَبَطَا (٣) وَمَا اتَّقَى الْوِزْرَا لَمْ أَعْرِفَ الشَّرَطَا - فَكُنْتُ مُغْتَرَا

قَدْ هَمَّتْ فِي وَشَنَانِ أَشَدَّ الشَّرَى تَشْبِي

بِإِحْظَاهِ الْفَتَانِ فِي مَعْرَكِ الْحَرْبِ

عَلَى الْفُطَى سَلْطَانِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ

سَبَحَانَ مَنْ أَعْطَى جَفْوَنَكَ السَّعْرَا وَالْقَبْضَ وَالْبَسَطَا وَالنَّهْيَ وَالْأَمْرَا

عَلَيَّ مَا أَعْبَدِي سِوَى عَيْنِيكَ

كَمْ أَنْبَ الْأَعْدَا بَعْدَ لِيهِمْ فِيكَ

وَالْحَسْنَ قَدْ أَبَدِي لِحَذْرِي بِخَدْيِكَ

بِأَحْرِفِ خَطَلَا لَمْ تَعْرِفِ الْجَبْرَا أَوْ دَعَّرَا نَقَطَا بِالْجَبْرِ كِي تُقْرَا

ضَنْ بِإِسْعَادِي (٤) وَالشَّمْسُ تَحْكِيهِ

مِنْ بَعْدِ مِيعَادِ أَبَدِي الرِّضَا فِيهِ

فَكَانَ إِنْشَادِي خَوْفَ تَجَنُّبِيهِ

حَبِيبِي قَدْ أَبْطَا (٥) مِنْ أَمْسِكَ الْبَدْرَا عَنِي لَقَدْ أَخْطَا وَأَسْفَلَ السَّرَا

• ترد في «توشيع» ص ١٥١ ونسبها لابي الحسن علي بن عبد الغني الحصري، وهي في

«جيش» ص ٧٤ ضمن موشحات ابن ارفع راسه، ورجحنا انها له.

(١) جيش: ولا درى الابطا (!) والارطى: شجر الائل

(٢) توشيع: هجيره

(٣) جيش: أماتني غبطا. وعبطا: نحرا

(٤) جيش: باسعاد

(٥) جيش: حيث قد ابطا (!).

• ابن لبون (أبو عيسى) - أوائل القرن السادس الهجري:

من أطلع البدر في كمالٍ غصني اعتدالي

بِهَجَّتِي شَادِلٌ غَرِيرٌ
يَجُوزُ (١) حُكْمًا وَلَا يُجِيرُ
وَمَا سَوَى أَدْمَعِي نَصِيرُ

تفعل عيناه بالرجالٍ فعمل القوال

غَلَّقَتْهُ أَوْطَفًا كَنَجِيلِ (٢)
يَعْتُدُّهُ الْفَصْنُ إِذْ يَمِيلُ
تَجُونُ فِي ثَغْرِهِ شُمُونُ
يَمِجُ فِي ثَغْرِهِ لَالٌ بَرْدُ الزُّلَالِ

يَأْهَى الْمَاذِلُ الْخَيْلِي
بِئْسَ يَمْنٌ بِنَسِي اللَّيْثِ بَابِلِي
قَلْبِي بِهِ مَفْرَمٌ شَجِي

عذلك عندي - إذ لست سالي - من المُمَحَالِ

كَمْ قَلَّتْ لَا أَدْعِي بِحَبِيبَةٍ
لَطُولِ إِعْرَاضِهِ وَعَتِيبَةٍ
حَتَّى إِذَا لَاحَ صَبِيحُ قَرِيبَةٍ

• النص في «جيتس التوشيح» ص ١٦٨
(١) في الاصل: يجوز حكما (٢) في الاصل: اوطف

أبديتُ من عِزةِ الجمالِ (٣) دَلَّ السُّـوَالِ

مازلتُ أشكوه له ببعيدة
حنى أرعوى حافظاً لِقَهْدِهِ
كأنه إذا أتى لسوعيدة

يختالُ في ظلمةِ الدَّلالِ . طيبُ الخيالِ

لله يومٌ به نَمَمْنَا
راق أصيلاً فراق حَسَمْنَا
عاتبته مازحاً ففنى

إياك يغرركِ صرفُ مالِ (٤) يامن بدا لي



(٣) و الاصل. عزة الجمال (٤) و الاصل صرف رمال نافذ د ر

• الكمين (أبو عبد الله محمد بن الحسن البطليوسي) - النصف الأول من القرن السادس الهجري :

لأح للروضِ على عُمرَ البَطَاحِ
وثنا جيداً مُنعمَ الأفاحِ
زارني منه على وجهِ الصبَاحِ
نشرَ القلَّ عليها حينَ فَاخِ
حبذا البشرُ لي عندَ افتتَاحِ
زَهْرٌ زَاهِرٌ
نورُهُ السَّنَاضِرُ
أرْجُ عَاطِرُ
ألمَا عَقِدِ
وجنَّةُ الوَرْدِ

يضحك الروضُ مسابِلَ السَّحابِ
ومشتُ فيه لآلئِ الحَبَابِ
فتراه كيفَ (١) يكشِفُ النَّقَابِ
بختي طولُ تناسُجِ الرِّيحِ
وتسرى البرقُ كصارمِ مُشَاخِ
ملاءَ أجفَانِيه
فوقَ غَدْرَانِيه
عندَ تَهْتَانِيه
وسطَ الرَّعْدِ
سُلَّ من غَمْدِ

رقصت وسطَ رباضِها الغُصُونِ
وأرتنا من لطائفِ المَجُونِ
فنسينا عندَ وشيهِ المَظُونِ
كنجومِ أطلعتُ والجنُوصَاخِ
فسعى الناسُ بالسنِّ فِصَاخِ
رقصتُ نَشْوَانِ
كسلِّ إِحْسَانِ
وشي صِنْمَانِ (٢)
في ذرى سَعْدِ
نعمَ الحمدِ

• برد النص في «حيس التوشيح» ص ٩٤.

(١) كذا في المطوع، ولعلها: حين

(٢) صعاك: صنعاء

واخلع العذرا
مزة صفيرا
عنتت دهرنا
ناعم القد
شيب بالشهد

وتشنيها
حين يسودها
ومفانيها:
قد كسر نهدي
ونثر عقدي

فاغتني ما قد صفا من الزمان
واشرب الراح على سمع القيان
واغتبقها من سلافة دنان
كأسها جسم طفلة رداخ
تمزج الراح بريقها القراح

وفتاة فتنت بحسنيها
تشتكي طول جفاء خديها
وتسغني برفيع حنيها
ذبت والله أسي نطلق صياخ
وعمل لي في شفيفاتي جراح

• • •

• ابن عيسى المرسي الخباز (ابو الوليد يونس) : النصف الأول من القرن السادس الهجري :

مَنْ لِي بِظِي رَيْبٍ يَصِيدُ أَسَدَ الْفِيَاضِ (١) لَسَوْى بِسَدِينِي لِمَا أَمَلْتُهُ لِلتَّقَاضِي

جَعَلْتُ حَقِّي مِنْهُ بَيْنَ الرَّجَا وَالتَّمَنِّي
لَمْ أَظْهَرِ الْيَاسَ عَنْهُ لِمَا أَطَالَ التَّجَنِّي
بَلْ قَلْتُ بِأَقْلَبُ صُنَّةُ لَدَيْكَ عَنِ سَوْءِ ظَنِّي

وَأَنْتَ يَا نَفْسِي ذُو بِي وَيَا مَطِيئًا اعْتَرَا ضِي نَفْدٌ بِمَا شَتَّ حُكْمًا إِنِّي بِحَكِيمِكَ رَاضِي

مَا حَالُ قَلْبٍ لَدَيْكَ لَا تَنْقُضِي حَسْرَاتِهِ
يَشْكُو جَوَاهُ الْبَيْتِ وَلَيْسَ تَجْدِي شِكَاؤُهُ
مَهْلًا فِي رَاحَتِكَ حَيْسَاتِهِ وَمَسَاؤُهُ

يَا مَرِيضِي وَطَبِيبِي بِفِيكَ بَرَاءُ الْبِرَاضِ وَمِنْكَ قَدْ ذَبْتُ سَقْمًا فَلْتَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضِي

يَا مَنْ يَنْفِرُ ظُلْمًا مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بِصَابِرُ
مَا ضُرَّ إِذْ ذَبْتَ سَقْمًا لَوْ لَمْ تَكُنْ لِي هَاجِرُ
رَفَقًا فَبِي مِنْكَ أَلِي وَسِنَانٌ سَاجِي النَوَاطِرُ

رَأَى بِهِمْ مَصِيبٌ مِنَ الصَّحَاحِ الْبِرَاضِ يَرْنُو فَيُرْسِلُ سَهَا وَالْقَلْبُ فِي الْاِعْتِرَاضِ

• ترد كاملة في «جيس التوشيح» ص ١٤٧ وهي في «عدة الجليس» - بدون ذكر قائلها - ونقل د. الأهواني «الزجل في الاندلس» ص ١٨ المطلع والخرجة عن مقال غومت (الاندلس سنة ١٩٥٢) الخاصة بالخرجات الأعجمية في مجموعة ابن بشرى (١) جيس : يسطوباسد

مَنْ لِي بِتَفْتِيرِ جَفِينِهِ وَالْمَوْتُ مِنْ لِحْظَاتِهِ
إِنْ مَسَّرَ ثَانِي عِطْفِهِ فَالْحُسْنُ فِيهِ بِذَاتِهِ
أَوْرَمْتُ إِدْرَاكَ وَصْفِهِ أَعْيَتَنِي بَعْضُ صَفَاتِهِ

يجول لحظ الكئيب من خده في رياض لكن عن القطف تُختمى برهفات مواض

لله ظبيّة خيذر قد روعت بالفراق
بننت ثلاث عشر تُسبيلُ دمع المآقي
تقول في حال سُكْرِ لأقها في اشتياق

بامم مو الحبيب تيبش ان تزتر باض غار كفري يامما انن يجنال للشااض



• الأعمى التطيلي (المتوفي سنة ٥٢٥ هـ):

دَقَعَ سَمُوحٌ (١) وَضَلَّوْحٌ حِرَّازَ مَاءٍ وَنَارٍ مَا اجْتَمَعَا إِلَّا لِأَمْرِ كَبَّازٍ

بَثَسَ لَعْمَرِي مَا أَرَادَ الْعَذُونَ
عُمُرٌ قَصِيرٌ وَعِنَاءٌ طَوِيلٌ
بِأَزْفَرَاتٍ نَطَقْتُ عَنْ غَلِيلٍ (٢)
وَيَادْمَوْعاً قَدْ أَصَابَتْ مَيْيِلٍ (٣)

امْتَنَعَ النَّوْمُ وَشَطَّ الْمَرَّازُ وَلَا قِرَّازُ طَرْتُ وَلكِنْ لَمْ أَصَادِفِ (٤) مَطَارِ

يَا كَعْبَةَ حَجَّتِ إِلَيْهَا الْقَلُوبُ
بَيْنَ هَوَى دَاعٍ وَشَوْقِ مُجِيبِ
دَعْوَةٍ (٥) أَوَاهِ إِلَيْهَا مُنِيبِ
لَبِيكَ لَا أَلْوِي لِقَوْلِ الرَّقِيبِ (٦)

• الموشحة في جيش ص ١٠٦ وديوان الأعمى التطيلي ص ٢٦١
والتوشيع ص ١٠٦ .

(١) الديوان: مفوح .

(٢) توشيع: عليل .

(٣) الديوان: ويا دموع قد أعانت .

(٤) ط الديوان: أصادق .

(٥) جيش: حسنت . الديوان: حسنة .

(٦) الديوان: لبيك الا الهو وقل للرقيب . جيش: لبيك لا الوي .

جد لي بحج (٧) عندها واعتماد ولا اعتذار قلبي هدي ودموعي جمار

أهلاً وإن عرّض بي للمنون
بمائس الأعطاف ساجي الجفون (٨)
ياقسوة يحسبها الصّب لِين
علّمتني كيف تُساء الظنون (٩)

مذبان عن تلك اللبالي القصار دمي غراز (١٠) أكتا بن جفوني غراز (١١)

حكمت مولى جار في حكمه
أكنى به لا مفيحاً باسمه (١٢)
وأعجب (١٣) لأنصافي على ظلي
واسأله عن وضلي وعن صرّمه

ألوي بحظي (١٤) عن هوى واختياز طوع النفاذ وكل (١٥) أنس بعده بالخيار

(٧) الديوان والحس : مرني .

(٨) في جيش : وسن الجفون . وفي الديوان يشير المحقق «ال أن الأصل لم يكن واضحاً ، ولعله : «فما بر ماتصون الجفون» .

(٩) في الديوان والجيش : كيف أسوء .

(١٠) الديوان والجيش : نومي غرار .

(١١) الجيش : بن جفوني غرار .

(١٢) الوشيع : أهدي به .

(١٣) الديوان والجيش : فاعجب .

(١٤) الديوان : بحق .

(١٥) الديوان والجيش : فكل .

لا بُدَّ لي منه على كلِّ حال
مولي تجنّسني وجنفا واستنطبان
غادرني رهقن أسي واعتلان

ثم شدا بين الهوى واللال:

ما والحبيب دموا صار مادر شنار بتفيس رامش كف دمومار(١٦)



٢

هاجك عن جقان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواء صديري
آه مما أجند شقني ما أجند
قام بي وقعد باطش مُنيد
كلا قلت قد قال لي أين قد

(١٦) كذا جاءت الخرجة في الديوان (وهي بالأعجمية أي بلغة الرومانت) وترد في التوشيع «مر الحبيب انفرم دمومار.. كان دشنار.. تنفس اميت كسادمواتار» وفي الجيش «ما والحبيب دمومار.. فادر شنار.. بنفس آست كساد مومار» وأوردها د. احسان عباس في «تاريخ الأدب الأندلسي» ج ٢ ص ٢٤١ نقلا عن مقالة عن الخرجات كان الأستاذ غومت قد نشرها في «الأندلس» سنة ١٩٥٤، وفيه: موا الحبيب انفرم ذي مومار كن دشتر نفيس اميب كسد نوليفر ومعناها «حبيبي مريض بسبب الحب - وكيف لا يكون ذلك - ألا ترى أنه لن يرجع إلّي أبداً»؟

• انظرها في «ديوان الأعمى التطليبي» ص ٢٥٣ وترد في «المغرب» ٤٥٣/٢ و«دار الطراز» ص ٤٣

وانثنى حُوط بان (١) ذا مَهْرٌ نَضِير (٢) عَابَثَهُ يَدَانُ (٣) لِلصَّبَا وَالقَطِيرِ
ليس لي منك بُد (٤) خذ فَوَادِي عَن يَدِ
لم تَدْعُ لِي جَلْدٌ غَيْرَ أَنِي أَجْهَدُ
مَكْرَجٌ مَن شَهْدُ وَاشْتِيَاقِي بِشَهْدِ
مَا لِي بِنْتِ الدَّنَانُ وَلِذَاكَ التُّنْفَرُ أَيْنَ مَعْيَا الزَّمَانُ (٥) مَن حُمَيَا الحَخِيرِ (٦)
بي هوى مَضْمَرٌ (٧) لِيَتِ جَهْدِي وَفَقْدُ
كَلِمَا يَظْهَرُ (٨) ففَوَادِي أَفْقُةُ
ذَلِكَ المَنْظَرُ لَا يُدَاوِي عَشْفُةُ
بِأَبِي كَيْفَ كَانَ قَلْنِكِي دُرِّي رَاقٍ حَقِ اسْتَبَانُ (٩) عُدْرُهُ وَعُذْرِي
هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ إِلَى أَنِ أَيَّاسَا (١٠)
ذُبْتُ إِلَّا قَلِيلًا عِبْرَةٌ أَوْ تَقَاتَا
مَا عَسَى أَنِ أَقُولَ سَاءَ ظَنِّي بِعَسَى
وَأَنْتَقَضَى كُلُّ شَانٍ وَأَنَا اسْتَشْرِي خَالِعًا مِّنْ عِنَانٍ جَزَعِي أَوْ صَبْرِي
مَا عَلَيَّ مَن يَلُومُ لَوْ تَنَاهَى عَنِي
هَلْ سَوَى حُبِّ رَمِ دَيْئُهُ التَّجْنِسِي
أَنَا فِيهِ أَهْمٌ وَهَوِي يَنْفِي

قَدْ رَأَيْتُكَ عِيَانِ آشٍ عَلَيْكَ سَاتَدْرِي (١١) سَيَطُولُ الزَّمَانُ (١٢). وَسَتُنْسِي ذِكْرِي (١٣)



(٦) الديوان: من محيا الجمر

(٧) المغرب: بن جوى

(٨) المغرب: كلما يذكر

(٩) المغرب: رق

(١٠) المغرب: إلى أن أيسا

(١) المغرب: غصن بان

(٢) المغرب: ذا فنى

(٣) المغرب: لاعبته

(٤) المغرب: لي فيك

(٥) المغرب: ليس محيا

(١١) دار: ليس عليك ساتدري وفي الديوان: ليس عليك ستدري

(١٢) المغرب: سايطول

(١٣) المغرب: وتجرى غيري

« الأبيض (أبو بكر محمد) المنوفي بعد سنة ٥٢٥هـ:

مَنْ سَقَى عَيْنِكَ كَأْسَ الْمُدَامِ يَا مُنَى السُّنْتَهَامِ

رَشَاءُ أَسْهَرْتِي وَهُوَ نَائِمٌ
رَقًّا لِي وَالْمَوْتُ بَيْنَ الْحَيَاةِ
عَجَبًا مِنْ دَمْعِهِ وَهُوَ بِاسْمِ

خَيْتٌ يَمْزُجُ لِي تَحْتَ اللَّتَامِ (١) عِبْرَةٌ بِابْتِسَامِ

فَلِيبَ دُنْيَايَ تُسْقَى رُوَيْدُ
تَحْتَ إِحْسَانِ الْوَزِيرِ ابْنِ زَيْدِ
فَأَنَا أَرْبَعٌ فِي خَبْرِ قَيْدِ (٢)

بَيْنَ بَرٍّ وَعَطَايَا جِسَامِ أَخَوَاتِ الْقَمَامِ

بِأَيُّنِ الْقَمَامِ بَعِيدِ الْمَافَةِ
قَدْ كَفَى قَرْطَبَةَ كُلِّ آفَةِ
كَمْ يَدٍ أَوْلَيْتَ دَارَ الْخِلَافَةِ

طَوَّقْتَ جِيدَكَ طَوَّقَ الْحَمَامِ فِي خُلَيْتِ الْكِرَامِ

• برد النص في «حيس الوسيط» ص ٥٤ (غير مقال على أي مصدر آخر)

(١) احدنا نمراده نسجه حس حسى عبدالوهاب

(٢) كذا في انطويح وسك في صحت النمراده ولعلها: «وانا اربع في عبر قيد»

بِكَ يَا مُشْرِفُ صَبَّحَ الْيَقِينُ
أَنْتَ صَبَّحُ الْمَشْكَاةِ الْمُبِينُ
أَيُّ نَصَلِ سَلَمَهُ مَا (يَلِينُ) (٣)

مَلِكُ شَرْفِهِ فِي الْأَنْبَامِ حَمَلُ ذَاكَ الْخُسَامِ

شَرُفُ الْمَلِكِ بِهِ حِجَابَةٌ
فَشَدَّتْ وَجَدًا بِهِ غَرْنَابَةٌ
إِذْ تَوَخَّى بِسَوَاهَا ارْتِبَابَةٌ

كَلَّ يَوْمَ اقْرَبِكَ يَا حَبِيبَ السَّلَامِ وَنَسِيْتَ أَنْتَ ذَمَامِ

• • •

(٣) بياض في الاصل، وملأناه بما يناسب المعنى

• ابن الزقاق (أبو الحسن علي) المتوفى سنة ٥٣٠:

تُحَدِّثُ الشُّوقَ عَن نَفْسِي وَعَنِ الدَّمْعِ الَّذِي هَمَّعَا

مَا تَسْرَى شَوْقِي قَدْ أَتَقَدَا
وَهَمِّي بِالدَّمْعِ وَأَقْرَدَا
وَاعْتَدَى قَلْبِي عَلَيْكَ سَدَى

أَهْ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ قَبَسِ بَيْنَ طَرَفِي وَالْحَشَا جَمِيعَا

بِأَبِي رَيْسَمٍ إِذَا تَقَفَرَا
أَطْلَمْتِ أَرْزَاؤُهُ قَمَمَرَا
فَاحْذَرُوهُ كَمَا نَظَرَا

فَبِالْحَاظِ الْجَفُونِ قَيْسِي أَنَا مِنْهَا بَعْضٌ مَن صَرَعَمَا

أَرْتَضِيهِ جَارَ أَوْ عَمَلَا
قَدْ خَلَعْتُ الْعَقْدُ وَالْعَمَلَا
إِنَّمَا شَوْقِي إِلَيْهِ قَلَا

كَمْ وَكَمْ أَشْكُو إِلَى اللَّعْسِ ظَمَأِي لَوْ أَنَّهُ نَفَعَا

• نرد الموشحة في توشيح التوشيح منسوبة لابن الزقاق (وألفتها محققة ديوان ابن الزقاق إلى الديوان اسنادا إلى ذلك) كما تجيء في «عقود اللاك» مخطوطة الاسكوريال ورقة ١٠ منسوبة كذلك لابن الزقاق بينما نسبتها صاحب «نفع الطيب» ص ٥٣٩ إلى ابن بقی

ضَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحَوَرِ
وَبَطْرِيفٍ فَاتَرَ النَّظَرَ
حُكْمَهُ فِي أَنْفَسِ السَّبْرِ

مثلُ حكيمِ الصَّبِيحِ فِي الْغَلَسِ إِنْ تَجَلَّى نَوْرُهُ صَدَعَا

شَبَّهْتَهُ بِالرَّشَا الْأَقْمِ
فَلَعَمْرِي إِنَّهُمْ ظَلَمُوا
فَسْتَفْنِي مَنْ بِهِ السَّقَمُ

أَيْنَ ظَبْيِي الْقَفْرِ وَالْكُئْسِ مَنْ غَزَا فِي الْحَشَا رَتَعَا



• ابن رحيم (ابوبكر) المتوفى نحو ٥٣٠هـ (؟):

نسيمُ الصِّبَا أَقْبَلَ مِنْ نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي وَجْدًا عَلَى وَجْدِي

يَا رِيحَ الصِّبَا بِالْك دَارِي
بِقَرْفِ شَذَا مَسْكَ دَارِي
ووصفِ رشا بِالْهَجْرِ يَبْرِي
وسل بِاللَّوِي عَنْ كُتْبِ يَبْرِي

هل استوحشتُ بالنأي والبُعدِ وما صنعتُ بشينهُ مِنْ بَعْدِي

لئن هَجَرَ الشَّادِنُ أوطَانِي
وصفبُ العزَا فِي النَّأِي أوطَانِي
وضاقتُ بهَجْرِ الحَبِّ أَعْطَانِي
وضننتُ بِمَا فِي الحَبِّ أَعْطَانِي

فيا عاذلي عن عذلي عَدَّ فما حب ذَا الحَبِّ قَدْ يُعْدِي

خَمَامَ اللّوِي بِالنَّوْحِ أَرْشَانِي
بِقُمْرِيَّةِ نَاحَتِ بَوْرَشَانِي
تَهَيَّمُ بِهِ وَهُوَ لَهَا شَانِي
فَقَلْتُ لَهَا شَانِكِ مِنْ شَانِي

• الص في «جيس الوسيح» ص ١٧٥

وسعدك يا ورقاءُ من سعدي وفي كلِّ وادٍ من بني سعدي

بنفسي الذي قد بزّ أشرافا
وحازت به الأيسامُ إشرافا
أيا ابن سعيد سدت إيلافا
بذلت لهم جودك آلافا

أجرّيت (١) إذ سميت بالحمدِ وقت من المهدي إلى المتجدِّ

حبيبٌ بدا منذ بدا أنساني
على أنه أسكنُ إنساني
غزال عن التعميق أغناني
وأنصفت إذ زاد غنائي

لأي قصة تبيت وحدك وأبيت وحدي كما بت عندك حتماً (٢) تبيت عندي

• • •

(١) في المطبوع : أجرّيت
(٢) في المطبوع : حتى

ابن بقل (أبو بكر بقل، المتوفى سنة ٥٤٥هـ):

١٠

ساعِدُونَا مَصِيحِينَا رَنْشِفَهَا قَدْ ظَمِينَا (١) كُنْضَارِي لَجْنِي نِعَمَ أَجْرِ الْعَامِلِينَا

فَمَ بِنَا نَجَلُوا الْكُرُوسَا تَحْتَ أَظْلَالِ السَّحَابِ
نَتَمَاطَاهَا عَسْرُوسَا خَلِيهَا دُرُّ السَّحَابِ
قَهْوَةٌ تُعْطِي النَّفُوسَا عِزَّ أَيَّامِ السَّحَابِ

تَغِيْبُ اللَّيْلُ الْقَرِينَا وَيُرَى كَرِي قَرِينَا حِينَ يُنْقَى بِالْيَدَيْنِ جَاقَهَا حِينَا قَعِينَا

بِسُومِنَا يَوْمَ أَنْيَقُ يَوْمَ شُرْبِ وَالْتِذَاقِ
طَرَزَتْ فِيهِ الْبُرُوقُ لَا يَسَاءُ أَثْوَابَ لَاذِ
وَسَقِ السُّهَيْمُ الرَّقِيقُ مَاءَ وَرْدٍ بِرِذَاقِ

أَفْطَرَ السَّحْرَ الْعِينَا حِينَ رَمَى الْيَاسَمِينَا وَبَكَى مِنْ دُونَ عَيْنِ فَضِيحَكُنَا فَكَيْهِينَا

أَهَا السَّاقِي الْمُنْعِيَا بِرِيَا حِينِ السَّمْنِي
يَسْحَرُ عَيْنِيكَ الْحُمِيَا فَاصْرِفِ السَّهْبَاءَ عَنِّي
لَا تَسَلِّظْهَا عَلَيَا فَاهْوَى قَدْ نَالَ مَنِّي

قَدْ نَفَسَتْ السَّحْرُفِينَا قَرَضِينَا الْحُبَّ دِينَا قَمْنَايَ دُونَ مَتْنِ أَنْ تَرَى ذَاكَ الْجَبِينَا

لِي حَبِيْبٌ يَسُوْفِي وَصَلُّهُ فِي الْحُبِّ مِنَّةٌ
وَجْهَةٌ صَبِيْحٌ وَضَمِيٌّ قَدْ تَبَدَّى فِي الدُّجْنَةِ
دَلِّي مَنْنَهُ الْأَيْبِي فَأَعَادَ النَّارَ جَسَّةً

• ترد في " جيش التوشيح" ص ١٣ ولم نجدها في غيره من المصادر
(١) في المطوع: قد صمما

بَدَلَتِ الْوَرْدَ الْمُضَوَّنَا بَعْدَمَا كَانَ ضَيَّنَا فَكَأَنِّي ذُو رَعْبِي أَوْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

سَاءَتْنَا لَمَّا اتَّضَلْنَا كُلُّ مَفْتَابٍ حَسُودٍ
وَكِذَلِكَ الرَّجْعَةُ قَلْبَنَا لَا لِنَدْنِيْسِ الْبُرُودِ
لَمْ تُرِدْ فِيهَا امْتِنَانَنَا غَيْرَ اقْتِلَاقِ الْحَسُودِ

قَدْ بَلَيْنَا وَابْتَلَيْنَا وَأَشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا قُمْ بِنَا بِأَنْوَارِ عَيْنِي نَجْعَلُ الشَّكَّ يَقِينَا

٢

مَالِي شَمُونُ إِلَّا شُجُونُ مِزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعُ هَسُونُ
لَهُ مَا بَدَّرَ مِنْ الدَّمْعِ
صَبٌّ قَدْ اسْتَمَبَّرَ مِنْ السُّلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جُوذُرُ يَوْمِ الْبَيْعِ (١)
فَهُوَ قَنْبِلُ لَابِلِ ظَلِيمِي بَيْنَ الرَّجَا وَالْكَاسِ لَهُ قَسُونُ
جَرَّخْتُ لِلتَّخِينِ كَفِّي بِكَفِّي
وَحَبِلَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْفِي
لَا شَكَّ بِالْبَيْنِ يَكُونُ حَتْفِي
حَانَ الرَّحِيلُ (٢) وَلِي دَيْسُونُ إِنْ رَدَّهَا الْعَبَّاسُ فَهُوَ الْأَمِينُ
أَمَا نَرَى الْبَدْرَا بَدْرَ السُّفُودِ
قَدْ أَكْتَى خُفْرَا مِنْ الْبُرُودِ
إِذَا انْتَهَى نَفْرَا مِنْ (٣) الْقُدُودِ

• النص في «دار الطراز» ص ٦٧ وذكر الخرجة ص ٣١ ونسبها لابن بقي وترد الموشحة في نفح الطيب ٣٠٢/٩ مسبوقة بما يطربني من الموشحات قول بعضهم «وترد الخرجة في توشيح التوشيح» ص ١٧٥ في حاتمة موشحة للصفدي باها على

نق موشحة ابن بقي

(١) نفح : يوم الطلوع

(٢) نفح : حال

(٣) دار : من

أضْحَى بِقُورِكَ	مَتَّ بِأَحْرِيكِ	فَدَا كَسَى بِالْأَسِّ	الْبِاسِمِينَ
	قَلْتُ وَقَدْ شَرَّأَ	النَّوْمَ عَنِّي	
	وَأَيْسَ السُّوْأَ	الشُّقْمَ مِنِّي (٤)	
	بَصْد. فَلَمَّ صَدَّ	فَرَعَتْ سَنِي	
جَسِي نَحِيلُ	لَا يَسْتَبِينُ	يَطْلِبَةُ الْجَلَّاسِ (٥)	حَيْثُ الْآتِينَ
	تَجَاوَزَ الْحَدَّ (٦)	قَلْبِي اشْتِيَاقًا	
	وَكَلَّفَ الشُّهْدَا	مَنْ لَوْ (٧) أَطَاقَا	
	قَلْتُ وَقَدْ مَدَّ (٨)	لَيْلِ رُؤَاقَا:	
لَيْلٌ طَوِيلٌ	وَلَا مُعِينٌ	يَاقَلْبُ بَعْضِ النَّاسِ	أَمَا تَلِينُ؟

•••

(٤) دار: للقم

(٥) دار: تطلبه

(٦) نفح: الحد

(٧) نفح: من لا

(٨) نفح: وقد مد

• أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٥٠هـ):

ذَهَبَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ فِضْفِةُ النَّهْرِ

أَيُّ نَهْرٍ كَالْمُدَامَةِ
صَيْرَ الظِّلَّ فِدَامَةَ
نَسَجْتُهُ الرِّيحُ لَامَةً
وَتَنَسْتُ لِلْفَصْمِ لَامَةً

فَهُوَ كَالْمَضْبِ الثَّقِيلِ حُبَّتْ بِالسُّمْرِ

مَضَجِكَا ثَفَرَ الْكَيْمَامِ
مُبَكِّيَا جَفْنَ الثَّمَامِ
مُنْطِيقَا وُزْقَ الْحَمَامِ
دَاعِيَا إِلَى السُّدَامِ

فَلِهَذَا بِالقَبُولِ خُطَّ كَالسُّطْرِ

حَبَّتَا بِالْحَوْرِ مَسْفَى
هِيَ لِقْفُظٌ وَهُوَ مَعْنَى
مَذْهَبُ الْأَشْجَانِ عَتَا
كَمْ دَرِينَا حَيْثُ مِيرْنَا

ثم في وقت الأصيلِ لم نكن نديري

• النص في «المغرب» ١٠٣/٢

قَلْبُكَ وَالْمَرْجُ اسْتَدَارَا
بِئْدَرِي السُّكَّاسِ يَسْوَارَا
سَالِبٌ مِنْهُ السُّوقَارَا
دَائِرًا مِنْ حَيْثُ دَارَا (١)

صَادَ أَطْيَارَ الْعُقُولِ . شَبِيكَ الْخَمِيرِ

وَعَمَدَ الْجِبِّ فَأَخْلَقَتْ
وَأَشْتَهَى السُّظْلَ نَسْوَقَ
وَرَسُولَ قَسَدٍ تَعْمِرَقَ
مَنْنَةً مَا أَدْرَى فَحَمِرَقَ :

بِاللَّهِ قُلْنَ يَا رَسُولِي . لَيْشَ يَنْفَبُ بِيَدْرِي

• • •

(١) المطبوع : دار

• ابن شرف (أبو عبدالله) المتوفى نحو سنة ٥٧٠هـ :

ياربّة العقيد متى تقلد بالأنجم الزهر ذاك المقلد

من أطلع البدرأ على جبينك
وأودع السحرا بين جفونك
وزرع السُمرا بسقراط لسينك
يالك من قد مها تأوّد أهدى الي الزهر خدًا مُورّد

قم فاقتديح زئدًا من السقمقار
قد قلبت عبقدا مهنن الدراري (١)
وألبست بُردًا من السُنضار
واشرب على وُدّ (٢) عليا محمد ناهيك من سِرّ وطيب مورّد

السنصرُ يَلتأخ على عُلاه
والزهر يرتأخ إلى نداءه
ما الصبغُ وخبأ لولا تناءه
فالبس من المجد بُردًا معقد وانظّم من
السُنفر (٣) ذرأ مُتَضد

لله ما أغلى في كل حال
ملك قد استولى على الكمال
مقلد نضلا من السجلال

• يرد في «حيش التوشيح» ص ١٠٥، و«المغرب» ٢٣٢/٢ (وأهمل محقق الجيس
— لأمر ما — أن يقابل بين الصبي)

(١) الجيس : الدرار

(٢) المغرب : على ورد (وذكر المحقق أنها و الأصل : على ود)

(٣) الحس : من الفجر

ابن مالك الرقطي (أبو بكر أحمد) المتوفي سنة ٥٧١ هـ:

ماذا حَمَلُوا فَوَادَ الشَّجِي يَوْمَ وَدَعُوا
مالي بالهوى يئد تستطاع
ونارُ الجوى يُذكيها الوذاع
ويسرُّ الهوى بدموعي يُذاع (١)
بالحُبِّ هَمِلُ (٢) عيونٌ وتلتاع أضلعُ
هل يُرجى إيابُ لعهدِ الحبائبِ
إذ غصنُ الثباب (٣) مطلقُ الجوانبِ
ووصل الكيماب مبدونُ المطالبِ
فلا تبخلُ بالوضيل ولا الصبُّ يقنعُ
لا أسألُ ولا أصفي للواجي
بيل أصبُو ال قضيم الوشاج
فجيل الظلا (٤) ما بين الأجاج
فلو يمدُّ مابِت (٥) أظها وينقعُ
كم ذا تهجُّعُ وجفني ساهِرُ
بدرٌ يطلُّع (٦) في الصَّبج لناظر (٧)
له بُرُقُّعُ من سود القفائر (٨)
إذ تُبِلُ فشمسٌ بلبيل تَمْنَعُ
قد ذو اعْيَدَال منه الغصنُ اللدنُ

• النص في «المغرب» ٤٤٦/٢ هـ «جيس التوشيح» ص ٢١٨

(١) جيس: بالدمع

(٢) جيتس: فكم همل

(٣) جينس: إذ غصن

(٤) المغرب: بجيل

(٥) المغرب: لمابت

(٦) جيس: طوي يطلع (٧) جيتس: لافر (٨) جيس: الظفائر

يَهْرُ لِلْحَمْدِ (٤) نَضْلًا مُهْتَدًا يَهْبُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ

انسيم من الحُستى
في الشرف الأسمى
يا صِدْقَ من غهتسى
ما كوكبُ المجدِ الا محمداً
بِكُلِّ حُسْنٍ
وظلُّ أَمْنٍ
وأنتَ يسعنى
فرايةُ الامرِ عليه تُعَقِّدُ

• • •

(٤) الجينس : يَهْرُ

ممشوق اللال بنا (٩) ثم يرنو
بمبيتي غزال فاحذر حين يدنو
لحظ يرييل سها ما لها القلب موقع
مئى النفس كم تُزقى بالتجني
فيا بيدرتم صل بمض التني
لم يبتتم وبتات بفتني:
أسمر حلو بياض كل عاشق يبيت معو (١٠)

• • •

(٩) كذا في النص ، ولعلها بنأى

(١٠) في المغرب : مع

١ ابن زهر (الحفيد) المتوفى سنة ٥٩٥ هـ: ٥١

أيتها الشاقي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع
ونسديس همت في غرته
وبشرب الزجاج من راحته
كلما استيقظ من سُكرته
جذب الزق إليه واتكى
وسقاني أربعا في أربع
مالعيني عثيت بالظنير
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري
عثيت عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معي
غصن بان مال من حيث استوى
بات من يسواه في فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى
ويحه يبكي لِمَا لَمْ يَتَّع
ليس لي صبر ولا لي جلد
بالتقومي عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقا أن تشتكى
كمد اليأس ودل القطم
كبيدي حرى ودممي يكف
تعرف الذنب ولا تعترف
أهيا الممرض عما أصف
قد نما حُبِّي بقلبي وزكا
لا تخل في الحُب أنى مُدعى

• رد الموشحة في العديد من المصادر من بينها «المغرب» ٢٦٧/١ و «دار الطراز» ص ٧٣ (غير منسوبة) و «معجم الادباء» ٢١٩/١٨ و «المطرب» - غير كاملة - ص ٢٠٠ و «الموافي» ٤٠/٤ و «توسيع التوشيح» ص ١٢٦ (وقابل محقق التوشيح النص على المصادر السابقة ومن ثم لم نر ضرورة لرميد كل الخلافات) كما ترد في: «عيون الأنباء» - ص ٥٢٦ وفي «جيش» ص

حَسْبِي السَّجُودُ الْمِلَاحَا وَحَسْبِي سَوْدٌ (١) الْمُعِينِ
هَلْ فِي الْمَوَى مِنْ جُنَاحِ
وَفِي (٢) نَسِيدِيٍّ وَرَاجِ
رَامِ النَّصْرُوخِ (٣) صِلَاجِي

وَكَيْفَ أَرْجُو صِلَاحَا بَيْنَ الْمَوَى وَالْمُجُونِ
يَا غَائِبَا لَا يَغِيبُ
أَنْتَ الْبَعِيدُ الْقَرِيبُ
كَمْ تَشْتَكِيكَ (٤) الْقَلُوبُ

أَتَخَنَّتْهُنَّ جِرَاحَا وَاسْأَلْ سَهْمَ الْجُفُونِ (٥)
أَبْسَكِي الْعَمِيونَ الْبَوَاكِي
تَذَكَّرَ أَخْتِ السُّمَّاكِ
حَتَّى حَمَامِ الْأَرَاكِ

بَكِي بِسْتَجِيٍّ وَنَاحَا عَلَى فُرُوعِ النَّفْصُونِ
أَلْقَى إِلَيْهَا زِقَامَهُ
صَبُّ يَسْدَاوِي غَرَامَهُ
وَلَا يَطْبِيقُ السَّمْلَامَهُ

٢٠٢ وديوان ابن المعتز (ط . القاهرة ١٨٧١)، بعناية عزيز زند والنسبة لابن
المعز غير صحيحة كما بينا ونجىء كذلك في «العداوى المائسات» ص ٥ وفي
«عقود اللال» - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦ وسنذكر الفروق بين النسخ
عند تحقيقنا للكتاب الاخير

• ترد الموشحة في «المغرب» ٢٧٣/١ وفي «نوشيع» ص ١٠١ وفي «عيون
الانباء» ص ٥٢٧

(١) المغرب : نجل . طبقات : كحل (٢) المغرب : اوفى (٣) المغرب : النصيح
(٤) عيون : تشتكيك (٥) المغرب : فاترك . عيون الانباء : سهام العيون

غدا بشوقٍ وراحا ما بين سببي الطنون
يساراجلا لم يودع
رحلتك بالأنسي أجمع
والمجزئ يعطي وينتج
مرّوا وأخفوا الرّواحا عني وما ودّعوني (٦)

• • •

(٦) عيون : سحر وماودعتني

• محيي الدين بن عربي (المتوفي سنة ٦٣٨ هـ):

عندما لاح لعيني المشكا ذبت شوقا للذي كان معي

أهيا البيت المنيق المشرك
جاءك العبد الضعيف المسرك
عبيثه بالدمع دوما تذكرك

فريبة منه وتكر فالبكا ليس محموداً إذا لم ينقح

كلما عددت فيه قال لي
ليس هذا في بل في أيس لي
سأرى حكم قلبك قد بُليتي

بهاها متفينا قد شكنا وأنا أعلم شكوى الجزع

أشرق شمس له ما شرقت
فرأيناها بها إذ شرقت
أرعدت سحبت لها ما أبرقت

فعلينا أنه حين بكى ما بكى إلا لأمر موجع

مرّبي في ليلة ليس لها
آخر والصبح قد جالها

• انص في «الديوان الاكبر» ط. حجر (بومباي) ص ٢٠٢ وغنى عن الذكر
ان الموشحة على نسق قول ابن زهر «ايا الساقى اليك المشتكى»

والذي حرّمها حلّها

وانتدى يطلبُ وصلي واتكى ومضى اذ وقضاً لم يرجع

أها التّافى اسبقني لا تأتلي
فلنقد أتممت فيكوري عدلي
ولقد أنشدت ما قبل لي:

أها التّافى اليك المثكى ضاعت الشكوى إذا لم تنقع

...

• ابن سهل الإشبيلي (المتوفي نحو سنة ٦٥٠ هـ) :

هل درى طسّي الجيمي أن قد حمى
فهو في حرّ وخفق متلماً
بإسدوراً أشرقنت يوم النوى (١)
ما لنفس في الهوى ذنب يسوى (٢)
أحسنى اللذات مكلوم الجوى
كلما أسكوه ووجدني بسماً (٦)
إذ يقسيم القطر فيه ماثماً
غالت لي، غالت بالتودة
ما علمنا متل تغرنصدة
أخذت عيناه منه القزبده
فاجمّ اللمة معسول اللّمي
وجهه يتلو «الصّحى» مبتيماً
أها السائل عن جرمي لديه
أخذت تمسّ الصّحى من وجنتيه
ذهب الدمع بأسواقى البيه

قلبت صبّ حله عن مكس
لعبت ربح الصا بالقّس
عزراً تسليك، نهج الغرّ (٢)
مكمّ الحسنى ومن عيني التّظر (٤)
والتداني من حبيبي بالفكر
كالرّبي بالعارض المنبجس (٧)
وهي من بهجتها في غرّ (٨)
بأبي أفديه من جاف رقيق
أفحواناً عصرت منه زجيق (٩)
وفوايدي سكره ما إن يفيق (١٠)
ساجر الغنّج نهى اللّمس (١١)
وهو من إعراضه في «غبس»
لي حزاء الذّيب وهو المذنب
مشرقاً للشمس فيه مغرب
وله حدّ بلحظي مُذهبت

• النص في ديوانه (ط. احسان عباس) ص ٢٨٣، وفي «نفع الطيب»
٢٧١/٩، وعقود اللاك - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦٧، وهناك بعض
اختلاف في ترتيب الأفعال والأبيات.

- (١) نفع والديوان : اطلمت
- (٢) الديوان : نسلك بي. عقود : غرر نسلك
- (٣) الديوان : ما لنفس وحدها
- (٤) عقود : الحسن
- (٥) الديوان : التذاذي
- (٦) الديوان : واذا اشكو بوحدي. عقود : كلما اشكو بوجد ناسا
- (٧) الديوان : والعارض
- (٨) عقود : فهي (٩) عقود : أفحوان (١٠) عقود : لا يطبق
- (١١) عقود : الحمّة اكحل الطرف (وينقض بعدها القفل والبيت التاليان)

لاحظته مقلتي في الخلس
ذلك الوردة على المفتريس
غادرني مقلته ديقا (١٢)
أثر النمل على ضم الصفا (١٣)
لست الحاه على ما ألقا
وعذولي نطقه كالخريس
حل من نفسي محل النفس
تنلطي كل حين مانسا (١٦)
وهي ضر وحريق في الحشا (١٧)
أسدا وزدا وأهواه رثما (١٨)
وهو من الحاظه في حريس :
اجعل الوصل مكان الخمس

ينبست الوردة بسفريس كلما
لينت شعري أي شيء حرقا
كلما أشكو إليه حرقتي
تركت الحاظه من رمقي
وأنا أشكره فيما بقي (١٤)
فهو عندي عنادل إن ظلما
ليس لي في الأمر حكم بعد ما (١٥)
أضرم الدمع بأحشائي ضرام
هتي في خدي به برد وسلام
أتقي منه على حكم الغرام
قلت - لما أن تبدي مقلما
أها الآخذ قلبي مقلما

• • •

(١٢) الديوان : من اذا امل عليه حرقى طارحتى مقلته الدنفا

(١٣) الديوان : تركت اجفانه (١٤) الديوان : وانا اشكره

(١٥) عقود : ليس لي في الحب

(١٦) الديوان : تقدت دمي نار في ضرام تلتظي... مايشا . عقود : منه للنار.

(١٧) عقود : وهي منار (١٨) عقود : اسد الغاب

● ابن خاتمة الانصاري (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ)

فَمَ هَاتِيهَا فَهَوَهُ كَدَمِيعٍ مَهْخُورٍ قَدِ افْرَطْتُ اِفْرَاطًا فِي اللُّطْفِ وَالنُّورِ
هَذَا الرَّبِّي تَحْتَالًا فِي حُلِّي الزَّهْرِ
قَدِ سَحَبْتُ اذْيَالًا بِرَوْدِهَا الخُضْرِ
وَرَقَّتِ الْاَصَالُ لِقَبْرَةِ الْقِظْرِ
فَافْتَرَّ عَنِ حُوَّةِ (١) ثَغْرِ الْاَزَاهِرِ وَنَمَّ عَنِ اِحْلَاطِ مَسْكِ وَكَافُورِ
فَهَاتِيهَا قَدِ بَانَ لِعَاذِلِي عُذْرِي
فِي نَعْمَةِ الْعِيدَانِ وَرَنَةِ الزَّمْرِ
وَالنِّيمِ ظَلِي الْقُطْعَانِ (٢) وَأَرْشَفَ لَمِي الْخَمْرِ
رُضَابَةٌ حَلْوَةٌ كَذُوبٍ بِلُّورِ تَحْتَالًا فِي اَسْمَاطِ مِسْ جَوْهَرِ الثُّورِ
يُدِيرُهَا تَبْيَاةً كِبَالِ الصُّبْحِ مِرَاةً
إِنْ اَخْطَأْتُ كَفَاهُ سَقَمْتُكَ عَيْنَاهُ
لِلَّهِ مَا اَهْبَاهُ وَمَا اُتْحِنِيْلَاهُ
غَصْنٌ عَلَى رَبْوَةِ الْحَاظِ يُبَغْفُورُ (٣) مَجْمُورُ الْاَفْرَاطِ طَلِقُ الْاَسَارِيرِ
آه وَمَنْ يُبْلِي حَرَبًا أَنْ يَسْدِي
لَشِدَّةٍ مَا حَلَا بِالصَّبِّ مَسْ وَخَدِ
يَاعَاذِلِي مَهْلًا فَالْعَدْلُ لَا يُجْدِي
مَا اَبْعَدَ السَّلْوَةَ عَنِ قَلْبِ مَذْعُورِ تُبِّمَ فِي فُطَاطِ بَسْدِرِ ذُبْحُورِ
رَفَقًا مُنَى قَلْبِي بِقَلْبِ هَيْمَانِكَ
قَدِ زَادَ فِي كَرْبِي فَنُورِ اَجْفَانِكَ
اللِّسَةَ فِي صَبِّ بِنَيْلِ اِحْسَانِكَ
يَا صَاحِبَ السَّظْوَةِ وَارْفُقْ بِمَهْجُورِ اَضْفُغْتَنِي اِضْفَاطًا (٤) يَا فِتْنَةَ الْخُورِ

● من ديوان ابن خاتمة الأنصاري تحقيق د. محمد رضوان الدابة (١٩٧٢م) ص ١٦٢، وعلق المحقق على النص بقوله إن: الموشح تام من ستة أفعال وخمسة اغصان وهو موشح غير شعري والخرجة عامية ولانفق معه في تعبير «اغصان» ولا في قوله: ان الخرجة بالعامية فهي خرجة فصيحة ونوتر تسمية «الابيات» بدلا من الأغصان لأنها هي التي عليها ابن سناء الملك.
(١) الحوة: السمرة في الشفة (٢) لعل المراد هنا: صفار الطباء (٣) البغفور: ولد الطيبي (٤) لاشك في أن التعبير سيء ولعل لقافية الطاء اثرا في هذه الركابة

● لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) :

جَادَكَ الْعَيْبُ إِذَا الْغَيْبُ هَمِي
لَمْ يَكُنْ وَصَلْتُكَ إِلَّا حُلْمًا
إِذْ يَقْوُدُ الدَّهْرُ أَشْتَابَ الْمُنَى
رَمَرًا بَيْنَ فِرَادَى، وَثُنَا
وَالْحَبِيبَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوْحَ سَنَا
وَرَوَى النِّعْمَانَ عَنِ مَاءِ السَّمَا
فَنَكَاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُغْلَمًا
فِي لِبَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى
فَمَا لَ غَسْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ يَسْوَى
حِينَ لَدَى الْأَنْسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
غَارَتِ الشُّهْتُ بِنَا أَوْرَتًا
أَيُّ شَيْءٍ لَامَرِيءٍ قَدْ خَلَصَا
تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ مِنْهُ الْفُرْصَا (٣)
فَإِذَا الْمَاءُ تُنَاجَى وَالْحَصَا
تَبْصُرُ الْوَرْدَ غَيْبُورًا بَرْمَا
وَتَسْرِى الْأَسَّ لِسَبِيبًا قَهَا
يَأْهِيْلَ الْحَيَّ مِنْ وَادِي الْقَضَا
ضَاقَ عَنِ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْقَضَا
وَأَعْبَدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى

يَارْمَانَ الْوَصْلَ بِالْأَنْدَلِسِ
فِي الْكُرَى أَوْ خُلَّتَةَ الْخَلِيسِ
يَنْقُلُ الْخَطْوَةَ عَلَى مَا يَرْسُمُ
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوَفُودَ الْمَوْسُمُ
فَتَنْفُورُ الزَّهْرِ مِنْهُ بِبِسْمِ (١)
كَبِيقَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ
بِزْدَهِي مِنْهُ بِأَزْهَى مَلَسِ (٢)
بِالذُّجَى لَسُوْلًا شَمُوسُ الْفُرَرِ
مَسْتَقْبِمَ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثْرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَنْلِمِجَ الْبَصْرِ
هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الْخَرَسِ
أَثْرَتِ فِيهَا عَيْبُونَ التَّرْجِسِ
فَيُنْكَوْنُ الرُّوْحُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَنْقِيهِ
وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَنْكُتْسِي
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنِي قَرَسِ (٤)
وَيَقْلِبِي سَكْنًا أَنْتُمْ بِهِ (٥)
لَا أَبَالِي سَرْقَهُ مِنْ غَرِبِهِ
تَعْتَقُوا عَابِيكُمْ مِنْ كَرِبِهِ

● يرد النص كاملا في «النفح الطيب» ٢٢٥/٩ (ويأتي معظمه في «مقدمة» ابن خلدون ٣/٣٩٩) وفي مصادر اخرى منها «عقود اللاك» - مخطوطة الاسكوريال -

(١) عقود : ومقدمه : فسنا الازهار فيه

(٢) عقود ومقدمة : باجمي

(٣) عقود ومقدمة : فيه الفرصا

(٤) «مقدمة» : بأذني فرس

(٥) مقدمة : مسكن

واتقوا الله وأحيوا أنفسكم
 خبت القلبت عليكم كزما
 وبقلبي مكم مقيرت
 قر أطلع منه المغيرت
 قد تساوى محير أو مذنب (٧)
 ساحر المقلية معسوك اللمي
 سدذ السهم وسمي ورمي
 إن يكن جاز وخاب الأمل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره معسول ممستل
 حكم اللحظ لها فاحسكما
 منصف المظلوم مئر ظلما
 ما لقلبي كلاً هبت صا
 كان في اللوح له مكنتباً
 جلبت لهم له والوصبا
 لا عج في أضلعي قد أضرم (٩)
 لم يدع في هجني إلا ذما
 سلمني بانفس في حكم القضا
 دعلك من ذكرى زمان قد مضى (١١)
 واصر في القول إلى المولى الرضا
 الكريم المنتهى والمستقى
 ينزل النصر عليه مثل ما
 مصطفى الله سمي المصطفى

(٦) عقود : خراب

(٧) مقدمة : ومذنب

(٨) عقود : وفوادي

(٩) مقدمة : لاعج من

(١٠) مقدمة : الا الدما، عقود : الا دما كبقايا

(١١) عقود : من ذكر

(١٢) ينهي هنا النص في المقدمة

مَنْ إِذَا مَا عَقَّدَ الْعَهْدَ وَفِي وَاذَا مَا فَسَّخَ الْخَطْبُ عَقْدَ (١٣)
 مِنْ بَيْتِ فَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ بَيْتُ الصَّرْمِ مَرْفُوعُ الْعَقْدِ
 حَيْثُ بَيْتُ الصَّرْمِ مَحْمِيُّ الْجَمَى وَحَنَى الْفَضْلُ رَكْبِي الْمَغْرَبِ
 وَالْهَوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَتْمًا وَالسَّيِّ هَبَّ إِلَى الْمُغْتَرِبِ (١٤)
 هَاكُنَّهَا يَأْسِبُظُ أَنْصَارِ الْعُنَا وَالَّذِي إِنْ عَنَسَ السَّهْرُ أَقَالَ
 غَادَةَ الْبَسْهَاءِ الْحَسَنُ فُلَا (١٥) تَهَرُّ السَّقِينِ جَلَاءُ وَصِقَالَ
 عَارِضَتْ لَمْطًا وَمَعْنَى وَحَلَا قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحَبُّ فَقَالَ:
 هَلْ دَرَى طَبِي الْجَمَى أَنْ قَدْ حَقَى قَلْبَ صَبِّ حَلَّةٍ عَنْ مَكْنَسِ
 فَهَوْ فِي حَرٍّ وَخَفِيفٍ مِثْلَ مَا لِعَيْبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

• • •

٠٢

بِأَحَادِي الْجَمَالِ عَرَّجَ عَلِي سَلَا (١) قَدْ هَامَ بِالْجَمَالِ قَلْبِي وَمَا سَلَا
 عَرَّجَ عَلِي الخَلِيجِ وَالرَّهْلِي فِي الْحَقَى
 فِي الْمَنْظَرِ الْبِهِيحِ بِالْبَيْضِ كَالدُّمَى
 وَالْأَبْطَاحِ النَّسِيحِ مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا

(١٣) عقود : فتح

(١٤) عقود : نهب

(١٥) عقود : حلا

* النص في «نفاضة الجراب في علالة الإغتراب» لابن الخطيب، تحقيق
 د. أحمد مختار العبادي، ص ١٦٩. ويضم الكتاب موشحة أخرى لابن
 الخطيب، مطلعها:

قَدْ قَامَتِ الْحِجَّةُ فَلْيَعْذِرِ الْعَاذِرَ فَالْعَذْلُ لَا يَجْدِي
 شَيْئًا سِوَى الْكَرْبِ وَشَقْوَةَ الْخَاطِرِ وَشِدَّةَ الْوَجْدِ
 (ص ١٦٧) وَصَدْرُهُمَا ابْنُ الْخَطِيبِ بِقَوْلِهِ:

«ونظمت في هذه الأيام (ورجح المحقق في المقدمة، ص ٤ أن
 الكتاب لم يؤلف في الفترة ما بين سنة ٧٧٣ - ٧٧٦ أي الفترة الأخيرة من
 حياة ابن الخطيب التي قضاها في مفاه الاختياري بالمغرب الأقصى بل أكد =

لَهُ مِنْ جَلَالِ تَحَنُّنِكَ فِي حُلَا
وَوَلَّفَ مِنَ الرَّبَاطِ
بَسَنَرٍ اغْتِنِبَاطِ
مَسْتَدَسِّ الْمَوَاطِ
كَمْ مِنْ بِنَا هِلَالٍ بِأَفْقِهِ أَنْجَلِي
جَنِي النَّعِيمِ دَائِي
أَهْلَةُ الشَّوَانِي
وَقَهْوَةُ الدَّنَانِ
أَعْرُ كَالغَزَالِ مَقْلَدُ الظَّلَا
يَسْطُورَا يَالِي بِالْأَسْدِ فِي الْفَلَا

أُولَى الْيَكِ أَوْلَا
أَكْثَرْتِ فِيهِ قَوْلَا
خَذَفِي امْتِدَاحِ مَوْلَى
مُتَجَدِّ الْجَلَالِ مُشْتَهَرِ الْعُلَا
مِنْ ذِكْرِ مَعَهْدِ
فِي كُلِّ مَشْهَدِ
نَسَبِ مَوْيِدِ
قَدْ فَاقَ فِي كِمَالِ وَرَاقِ مُجْتَلَا

مِوَايِقُ الْخَلِيلِ
ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ
مُكْرَمِ التَّدْخِيلِ
وَمَحِيبِ الشُّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا
فِي الْأَسْمِ وَالسَّمَايِ
الرَّائِقِ الصَّفَاتِ
وَمُجْزِلِ الْمَسَاتِ
وَرَافِعِ الْمَعَالِي سُخْبَا مُظَلَّلَا

بِأَقْنِ غَلَاهِ دَرْتِ
خُذَهَا إِلَيْكَ جَرْتِ
وَفِي حُلَاكِ أَزْرْتِ
بِأَمْنَزَلِ الْغَزَالِ حَبِيبَتِ مَنْزِلَا
بِكُلِّ نَائِلِ
دَيْلِ الْخَمَائِلِ
بِقَوْلِ فَائِلِ:
فَمَا أَرَى بِسَالِ عَنْهُ وَإِنْ سَلَا

« أن الكتاب ألف خلال المدة التي كان فيها ابن الخطيب برفقة السلطان محمد الخامس الغني بالله عندما خلع وأقام بالعدوة. أي من سنة ٧٦٠ الى سنة ٧٦٣) موشحتين استطردت فيما الى مدح السلطان، تنويعاً في الوسائل، وسيراً للفرجة».

(١) مدينة بالمغرب الأقصى على المحيط، وأقام بها ابن الخطيب فترة في خلال مدة عزل السلطان، الغني بالله.

• ابن رمرک (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ) :

نسيمُ غرناطيةٍ عليلُ
وروضُها زهر بلبلُ
سقى بنجد رُبا المصلّى
فجمنه كلما استهلاً
والروضُ بالخُنّ قد تجلّى
ودوحها ظلُّه ظليلُ
والبرقُ والجرُّ مستطيلُ
عقيلةٌ ناحها السبيكةُ
كانها فوقه ملىكةُ
نطبعُ من عسجد سبيكةُ
أبدعها الخالقُ الجليلُ
قلبي إلى حسنه يميلُ
وزاد للحسن فيك حسنا
جدد للفخر فيك معنى
تدعى رشاداً وفيك معنى
فالنصر والسعد لا يزولُ

لكنة يبرىء العليل
ورشفة يسقُ القليل
مباكيراً روضه العمَام
تبسم الزهر في الكمام (١)
وجرد النهر عن حتام
يحسُن في ربعه المقييل
يلعب بالصارم الصقييل
تطيلُ بالمرقب المنيف
كرسيها جنة العريف
شموشها كلُّها تطيف (٢)
يامنظرا كلُّه جميل
وقبلنا قد صبا جميل (٣)
محمدُ الحميد والسماخ
في طالع اليمين والنجاخ (٤)
يخصك الفاكُ بافتناخ (٥)
لأنه ثابتٌ أصيل

• النص في «نفح الطيب ١٠٤/١٠ يتصدرها:» وقال أيضا من الموشحات الرائقة، في مثل هذه السابقة (إشارة لموشحة: «بالله يا قامة القضيبي» في الشوق إلى غرناطة ومدح الغنى بالله) وأشار إلى محاسن، من وصف الرشاد.

ويرد النص في «العداري المائسات» ص ٣٤ يتصدرها: «وقال متشوقا إلى

غرناطة ومادحا السلطان ايده الله نصره»

(١) في النفع: «فحفنه كلما استهلا» في العدارى ينسم

(٢) في النفع: كلما تطيف

(٣) في النفع: وقبلنا

(٤) في النفع: فيك منى

(٥) في العدارى تدعى دنارا

سَعَدٌ وَأَنْصَارَةٌ قَبِيلُ
 أَبَدَى بِهِ حُكْمَةَ الْقَدِيرِ
 وَدِرْعَ النَّهْرِ بِالسَّنْدِيرِ
 فَمِنْ هَدَيْلٍ وَمِنْ هَدِيرِ
 هَبَّتْ عَلَى رَوْضِهَا الْقَوْلُ
 فَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهَا يَجُولُ
 لِلزَّهْرِ فِي عَقْلِهَا رِقْمُ
 وَالسَّنْدَى بَيْنَهَا رُشْمُ
 وَكَسَلٌ وَإِدْبَاهَا يَمُ
 سُنْبُلُهَا مُدَّةٌ مِنْهُ نَيْلُ
 وَعَيْنٌ وَإِدْلَاهُ تَسِيلُ
 كَسَمٌ مِنْ ظِلَالٍ بِهِ تَرِفُ
 وَمِنْ زَجَاجٍ بِهِ يَشِيفُ
 وَمِنْ شِمْسُورٍ بِهِ تَحْفُ
 مَرَاجِهَا الْعَذْبُ سَلْسِيلُ
 وَكَيْفٌ وَالشَّيْبُ لِي عَذُولُ
 يَأْسِرْحَةُ فِي الْجِمَى ظَلِيلَةُ
 رَوْضِكَ اللَّهُ مِنْ خَبِيلَةُ
 وَبِرْقُهَا صَادِقُ التَّمْخِيلَةُ
 أَنْجَزَ لِي وَعَدَّكَ الْقَبُولُ
 يَأْسِرْحُهُ بِأَمَطَلُولُ
 أَبَاؤُهُ عِنْرَةُ الرَّسُولِ
 وَتَوَجَّجَ الرُّوْحُ بِالْقَسَاتِ
 وَرَيْسَ الزَّهْرِ بِالتَّحْبَاتِ (٦)
 مَا أَوْلَعَ الحُخْنُ بِالتَّشْبَاتِ
 وَطَرَفُهَا بِالتُّرَى كَلِيلِ (٧)
 حَتَّى نَبَدَّتْ لَهُ حُجُولُ
 تَلُوحُ لِلْعَيْنِ كَالنَّجْمِ
 عِقْدُ النَّدى فَوْقَهَا تَنْظِيمُ (٨)
 وَلَمْ يَسْزَلْ حَوْلَهَا يَسْحُومُ
 وَالتَّسِينُ الْفِ الْمَسْنِيلِ (٩)
 مِنْ فَوْقِ حَدِّ لَهُ أَسِيلِ (١٠)
 تَطْفَرُ لَهُ فَوْقَهَا سُتُورُ
 مَا بَيْنَ نُورٍ وَبَيْنَ نُورُ
 تُدِيرُهَا بَيْنَهَا الْبُدُورُ (١١)
 يَاهِلْ إِلَى رَشْفِهَا تَبِيلُ
 وَيَصْبُغُهُ صَفْرَةُ الْأَصِيلِ
 كَمْ نَلَسْتُ فِي ظِلِّكَ التَّمْنَى
 يُجَنِّى بِهَا أَطْيَبُ التَّجَنَّى
 مَا زَالَ بِالتَّغْيِثِ مَحِينًا
 فَلَمْ أَقْلَ مِثْلَ مَنْ يَقُولُ:
 شَرُّ الَّذِي بَيْنَنَا يَطْلُوكُ

(٦) فِي النِّفْحِ: وَدِرْعُ الزَّهْرِ... وَزَيْنُ النَّهْرِ

(٧) فِي النِّفْحِ: كَسَمٌ عَلَى رَوْضِهَا

(٨) نَفْحٌ: فَوْقَهُ

(٩) فِي النِّفْحِ: سُنْبُلُهَا

(١٠) نَفْحٌ: بِهَا تَسِيلُ

(١١) فِي النِّفْحِ: نَهْ تَصِفُ

• اللخمي الفرناطي (أحمد بن علي)، من شعراء القرن التاسع الهجري :

حيّاك بالأفراج داعي الضّباح قم لاصطباح

فالنوم في شرع الهوى لا يُباح

والصبحُ قد جرّده منه حُسام باد القسمام
تضحى وجوه الزهر منه وتام ذات ابتسام
وحامُ جنج الليل قد عاّد سام مما يُسام
وخافقُ البرق بدا بالنياح سامي اللياح

وأدمع المُزِنِ به في انياح

والروضُ من ذاك المتهون البليل ظلّ ظليل
يغدو نيم الزهر منه عليل يشفي القليل
وساجعُ البلبلي يُبيدي أليل على الخليل
لما رأى تلك الغياض الفياح غنى وصاح

وكساد يزري بالطيور الفياح

إني بذكري للتاصبي أطيّب عن كلّ طيب
كأنما تذكّاره لي مطيب غصن رطيب
حتى إذا ما قتت فيه خطيب بما يطيّب
أنت مدحي للصفات الميلاخ عيب الصلاخ

• ترد في «العذارى المائسات» ص ١٨ تسبقها جملة «قال .. على أثر ففوله
من الملح عام ٨٤٩»

فلم اميخ فيه إلسى قول لاخ

أما نرى ابن البازي استمك قلبى فسمان
غيتك ولكن ليس فيه انهمك إلا بسمان
بدر ولكن ليس إلا الكمات ثم السجستان
سه بأفبق المعنويات اتماخ إلسى الطماخ

وشائنه البذك وفرط التماخ

قد حاز فضل (١) التبق بين الوجود جلماً وجمود
تسوي اليها كان اليه مجود مسوما يجمود
وذائنه السملبنا رومس مجود عالي النجمود
شذاه للمأمول (٢) والسؤال راح والاقننـسـراح

ومسورد السماين منه قسراح

بمثل هذا التذخر يُشقى الغرام مما يُسرام

(١) في المطبوع: حصل

(٢) في المطبوع: بالمأمول

وقد جاء في «نفع الطيب» ح ٩ ص ٢٩٣ مطلع موشحة للسان الدين بن الخطيب

قد حرك الجملجل بازي الصباح والسفـجـسـر لاح
فيا غراب الليل حث الجناح

وذكر أنه «معارض للموشح الشهر الذي اوله:

بنفسج الليل تذكى وفاح بين السبسطاح
كأنه يلقى بمك وراح»

ومن المعارضات الاخرى له قول ابن سهل الاشيلي «ناكر الى اللذة والاصطباح»
وموشحة لاس نباته المصري اولها «ماسح محمد دموعي وساح» وتردان في «عقود
اللال» - مخطوطة الاسكوريان - ورقة ٥٠، ونحىء لاحيرة في «نفع الطيب».

فإبه فحمرُ النصاة الكرامِ سلا اصصرامِ
وجاهته أرزى بكل احتسرامِ صفت المرامِ
وجوده في الناس حاوي الجناح بالامتساح
فهل على فداجه من جناح

وهاكها مولاي ذات اعتمالك كما يُفناك
ترجو بدئ يفضي بجل العفناك للإستفان
وها أنا عارضتُ فيها متناك من كان قال:
سنبج الليل تزكى وواح فوق البسطاخ
أظنه يُفنى بباء وراخ



• المنصور السعدي (المتوفي سنة ١٠١٢هـ):

عظير الأرجاء لما ستننا
وأنت شمس الصحنى تضيخ ما
طاق بالكأس من التبرك فتى
فتس الألباب لما التمتنا
وأناسا بالخمبياً فتى
وكزوش الزجاج بين الشدما
نمرة صمراء في السلورما
باير اللذات واجتمع شملها
ذي عيون ساعسات كم لها
واقير الأرداف عنانى حملها
كلما أفرغ كأساً قال ما
فابذل الجهد وكن مغتنبنا
فرض اللذات كن منتهزاً
وليسالي الأسي كن منتجراً
واجتني زهر الهوى محترراً
لا تكن يوماً جباناً حينها
ما مضى يومٍ وواهى مثلها
للسرياض اذهب ترى بليلها
وتحدود الروض قد كثلها

شمال الصهباء عند القلبي
يفراً الليل لنا بين عشر
مولع بالشد عنى ما فتين
واجتني منه بعض الشفة
صدته تية الهوى عن الفتى
أزجت بالمرفق أفق المجلس
أشته الزجاج بروض السرجين
بسمبداً وغلام مطرب
من فنون البحر ما يلعب بي
ساجل الخمر وذا من غمخب
أنت بالشاري حياة الأنقى
لسميت العيتن طيب الأنقى
بشذاها قل حذف الخبر
قبل أن نمضي كلمج البصر
من جنابات هموم الكبر
لاحت اللذات كالمختليين
كان فالدهر لنا بالخرين
بتنفسى بين زهر ينجلي
دمع طل لأشفاق البلى

• يرد النص في «الدراري السع: الموشحات الأندلسية» ص ١٥، وعلى رأسه: «لابي العباس المنصور سلطان الأندلس»، كما يرد في «الكواكب السبعة السيارة» - مخطوطة الطاهرية - النص السابع، بتصدره «لأبي العباس المنصور مولاي أحمد، سلطان الأندلس».

والموشحة - كما هو واضح - مما نصح على موال مويحتي ابن سهل وان الخطيب اللتين مرتنا من قبل، وموشحة المنصور السعدي نموذج لموشحات متأخري المغاربة، وقد سفاها - على غلاتها - لتوضيح صبح هؤلاء المتأخرين في حرصهم - وهي عدم حرصهم - على تحكاة صبح العدمى.

يبانعُ الفصينِ مقامَ الأتلي
وعليها من ثيابِ الشُّنُدي
زر بالفنضة ثوبُ الأطلسِ
مائسات في قباءِ أحضري
تتلالاً كعمقودِ الجواهرِ
فغدا كالصبحِ باهي المنظرِ
في شفاهِ الفريدِ حسن اللقي
فبدا للمعينِ لا للملتي
وعيونُ الشيبِ في سهوِ الوسخِ
لصروفِ حدِّ حديثها وسن
واقتنى شرحَ شبابِ وطعن
واعتراه لاعج من هجسي
واغتنامُ الوقتِ فعلُ الأكيسي
أنت اذ ذاك جبان غافل
واجتهد فالدهرُ ضرعُ حافل
والجرىءُ الشهمُ ليثُ بايمل
باردا للأسدِ المُفتري
وله عزمُ أمسا كالقنبي

وقدودُ السانِ قد قامَ لها
والرُبي فاحت تحاكي حرمًا
جيبُها زرر بالزهري كما
وجلا الروضُ لنا أشجاره
وتسرى في جيديها أنواره
خلع الليلُ به أطمارة
وبسقاياه زهت فيه كما
كبيذارٍ في مُحبتنا علما
حبذا المعبوة أيام القبا
فاذا أيقظها دهرُ صبا
جرد الشيبُ بياضاً أشيباً
وغدا الإنسانُ شيخنا قريماً
فاذا ما فاك يقضي ندماً
لا تدعُ عمرك يقضي هدراً
وارقُ بالجهلِ من النبيلِ ذرى
إنما الأيامُ أمثالُ الشرى
ووحوشِ الأتسِ تبقى مغماً
ترك السوهمَ وخاض الظلمة

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن اياس: الدر المكنون في السبع فنون. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
ابن تغري بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

ابن سناء الملك: فصوص الفصول وعمود العقول. مخطوطات دار الكتب بالقاهرة وخزانة الأزهر والمكتبة الوطنية بباريس.

ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
الدرويش: العقيدة الدرويشية في السبع فنون الادبية. مخطوطة المكتبة المركزية بجامعة الملك عبدالعزیز - مكة المكرمة.

السلفي: معجم السفر نسخة حققها شير محمد زمان (لم تنشر بعد)
الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٠ مجلداً، مصوره عن مخطوطات الزيتونة واستامبول والمتحف البريطاني.

النواجي: عقود اللآل في الموشحات والأزجال. مخطوطة الاسكوريال
مجهول: الكواكب السبع السيارة. مصورة عن مخطوطة الخزانة الظاهرية بدمشق.

ثانياً: مصادر:

الابشهي: المستطرف في كل فن مستظرف. جزءان. القاهرة ١٩٥٢.
ابن الأبار: الحلة السيرة. تحقيق د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣.
ابن الأبار: التكملة لصلة الصلة. جزءان. القاهرة ١٩٥٥
ابن الأحرار: (اسماعيل بن يوسف): نثر الجمان: (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن). تحقيق. محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٧٦
ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الاطباء. تحقيق د. نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥

ابن الخطيب: (لسان الدين): حيتس التوسيح. تحقيق هلال ناجي، تونس ١٩٦٧

- ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقياء بالأندلس من شعراء المائة
الثامنة. تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٦٣
- ابن الخطيب: الاحاطة في أحبار غرباطة. تحقيق محمد عبدالله عان.
القاهرة ٧٣ - ١٩٧٤
- ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق د. أحمد مختار
العبادي القاهرة لا تاريخ.
- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. صدره باشراف لجنة من
المعلماء القسم الأول في مجلدين، ثم المجلد الأول من القسم الرابع القاهرة
١٩٣٩ - ١٩٤٥.
- القسم المجلد الاول من القسم الثاني تحقيق د. أحمد لطفي عبدالبديع القاهرة
١٩٧٥.
- ابن بشكوال: الصلة. جزءان، القاهرة ١٩٦٦
- ابن خاتمة: ديوان تحقيق د. محمد رضوان الداية. دمشق ١٩٧٢ م
- ابن خاقان : قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تونس ١٩٦٦
- ابن خنيسويه: المقدمة ط. كاترمير ٣ أجزاء باريس ١٨٥٨
- ابن خواكمان: وفيات الأعيان ٦ أجزاء، ط. محي الدين عبدالحميد القاهرة
١٩٤٨
- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الاياري وحامد
عبدالحميد وأحمد بدوي. القاهرة ١٩٥٤
- ابن الزقاق: ديوان. تحقيق عفيفة دبراني بيروت ١٩٦٥
- ابن زيدون: ديوان تحقيق علي عبدالعظيم. القاهرة ١٩٥٧
- ابن سعيد (المغربي) المغرب في حل المغرب (قسم الأندلس) جزءان تحقيق
د. شوقي ضيف. القاهرة ١٩٦٤
- ابن سعيد (المغربي) رليات المبرزين وغابات الميزين. تحقيق د. النعمان
عبدالتمال القاضي القاهرة ١٩٧٣
- ابن سعيد (المغربي): المقطف من أراهر الطريف. قسم منه نشره د.
عبدالعزير الأهاسي ضمن «أعمال مهرجان ابن

خلدون» القاهرة ١٩٦٢

ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات. تحقيق. جودت الركابي، دمشق ١٩٤٩.

ابن سهل (الاشيلي): ديوان. تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٧
ابن شاکر (الكتسي): فوات الوفيات ط. محيي الدين عبدالحميد، جزءان
القاهرة ١٩٥١

ابن عسد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين — أحمد الزين — ابراهيم
الاياري ط ٣ القاهرة.

ابن عربي: ديوان. طبعة حجر. بومباي.

ابن قتيبة: الشعر والشعراء. تحقيق د. خويه. ليدد ١٩٠٢

ابن المعتز: ديوان. ط. صادر بيروت ٦١، وطبعة دمشق ١٣٧١، والقاهرة
١٨٩١

ابن المعتز: شعر عبدالله بن المعتز، صفة أبي بكر الصولي. تحقيق استامبول
١٩٥٠

الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني ط. دار الكتب.

الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق عمر
الدسوقي وعلي عبدالعظيم (قسم المغرب والأندلس)
القاهرة.

امرؤ القيس: ديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة

الباقلاني: اعجاز القرآن. تحقيق أحمد السيد صقر ط ٣ القاهرة ١٩٧٣

التبريزي: الوافي في العروض والقوافي. تحقيق د. فخر الدين قباوة وعمر
يحيى. بيروت ١٩٧٥

التطيلي: (الأعمى) ديوان تحقيق د. احسان عباس. بيروت ١٩٦٣

الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٤ أجزاء. القاهرة ١٩٤٧

الحلي (صفي الدين): العاقل الخالي والمرخص الغالي. تحقيق هونرباخ
ويباد ١٩٥٥

السلي: أحبار وبرايم أدلية، مستخرجة من معجم السفر اختارها د.

احسان عباس بيروت ١٩٦٣

الصفدي: الوافي بالوفيات. الأجزاء المطبوعة (من ١ - ٩)

الصفدي: توشيح التوشيح تحقيق. البير مطلق. بيروت ١٩٦٣

الضبي: بغية الملتبس ط. مجريط ١٨٨٤م

الغبريني: عنوان الدراية. تحقيق عادل بوهض. بيروت ١٩٦٩

القفطي: الحمدون من الشعراء. تحقيق محمد معاصري. الرياض ١٩٧٠

المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. القاهرة ١٣٨٥هـ

المعري: رسالة الغفران تحقيق د. نت الشاطيء طه القاهرة ١٩٦٩

المعري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ٣ أجزاء بتحقيق السقا

والا ياري وشلي. القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢

المعري: نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. طعة محيي الدين (١٠)

أجزاء) وطعة احسان عباس (٨ أجزاء).

ياقوت (الحموي): ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) نشر

دار المأمون بالقاهرة.

مجهول: العذارى المائسات في الأرحال والموشحات. اختيار فيليب قعدان

الحازن. حوية ١٩٠٢

ثالثا: مراجع عربية:

الأهواني: (د. عبدالعزيز) الزجل في الأندلس. القاهرة ١٩٥٧

أنيس: (د. اراهيم) موسيقى الشعر. الطعة الثانية. القاهرة

البستاني (بطرس): أدباء العرب في الأندلس وعصر الابتعاث ط١ بيروت

١٩٦٨

الجراري (د. عباس): القصيدة (الزجل في المغرب) الرباط ١٩٧٠

الركابي (د. حودت) في الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٦٠

الريسوني (محمد المنتصر): الشعر السوي في الأندلس. بيروت ١٩٧٨

الرزقي (الصادق): الأغاني التونسية تونس ١٩٦٧

الزركلي: (حبر الدس) الأعلام ط٣

الشكعة: (د. مصطفى) الأدب الأندلسي: مصادقاته ومفهومه. بيروت ١٩٧٤

- صيف (د. شوقي): العصر العباسي الأول ط ٣. القاهرة الفن ومداهبه في الشعر العربي ط ٤ القاهرة ١٩٦٠
- الطننجي (محمد تاويب): ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي. بيروت ١٩٦٠
- الطيب (د. محمد عبدالله): المرشد الى فهم أشعار العرب وصاعتها ج ١ القاهرة ١٩٥٥
- عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) بيروت ١٩٦٠
- عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٦٢
- عناني (د. محمد زكريا): نشأة فن التوشيح بالشرق: مستلة من مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (مكة المكرمة) العدد الثاني
- غومس (اميليو غرسية): الشعر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس، ط ٣ القاهرة ١٩٦٩
- غومس (اميليو غرسية): مع شعراء الأندلس والمتنبي ترجمة د. الطاهر مكّي القاهرة ١٩٧٤
- كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس القاهرة ١٩٧١
- كرامة (بطرس): الدراري السبع (الموشحات الأندلسية) بيروت ١٨٦٤
- كيلاني (كامل): نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٢٤
- الكريم: (د. مصطفى عوض) فن التوشيح. بيروت ١٩٥٩
- هدارة (د. محمد مصطفى): اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري. القاهرة ١٩٦٩
- هيكل (د. احمد): الأدب الأندلسي القاهرة ط ٦، ١٩٧١
- ياقيل: مجموع الأغاني من كلام أهل الأندلس. الجزائر ١٩٠٤
- يلس (حلول) والحفناوي امقران: الموشحات والازجال. حرءا، الجزائر ١٩٧٢

رابعاً: مراجع أجنبية:

- Blachère (R.): Le Vizir Poète Ibn Zumruk et son oeuvre. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. II 1936.
- Gomez (Emilio Garcia): Estudio del Dar at - Tiraz - Preceptiva Egipcia de la Muwassaha. Al - Andalus. Vol xxvii (1962) pp. 21 - 104
- Hartmann (M.) Das Arabische Strophengedicht. Das Muwassah, Weimar, 1897.
- Jargy (S.) la poésie populaire traditionnelle chantée au Proche - Orient, Paris - la Haye, 1970
- Levi - Provençal: Islam d'Occident. Paris, 1948.
- Menendez Pidal: Poesia arabey poesia evropa- Madrid, 1941.
- Nykl (A.R.): Hispano - Arabic Poetry. Baltimore 1946.
- Pellat (Ch.). Langues et Literature arabes, Paris 1952.
- Pérès (H.). La poesie andalouse en arabe classique au xle siecle. Paris 1953.
- La poésie arabe d'Andalousie et ses relations Possibles avec la poesie des Troubadours. Le Cahiers du sud, 1974.
- Stern (S.N.) Hispano - Arabic strophic Poetry, Oxford 1974.
- Les Vers Finaux (Kharjas) en espanol dans les Muwashshah arabes et hebreux. Oxford, 1964.
- Les chansons mozarabes, Palerme 1953.



المحتويات

- مقدمة
- أضواء على التاريخ:
 - (فتح الأندلس - الاسم والموقع - عصور التاريخ الأندلسي: مرحلة الولاة والامارة ثم الخلافة الأموية - عصر ملوك الطوائف - عصر المرابطين - عصر الموحدين - العصر الغرناطي - ما بعد الرحيل (مرحلة المدجنين)
- ملاحظات حول الثقافة والمجتمع (السكان : المستعربة - المولدون - اليهود - أهل البلاد المعادون للعرب - العرب والبربر ..)
 - مكونات الشخصية الأندلسية (القلق وعدم الاستقرار - الاحساس بالنقص بإزاء المشرق - من جوانب الثقافة الأدبية الأندلسية - أوضاع المرأة)
- الشعر الأندلسي من البدايات إلى مرحلة النضج (أوائل الشعراء - شعراء البيت الأموي - يحيى بن الحكم الغزالي.
- شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية . ابن عبد ربه - ابن دراج القسطلي - يوسف بن هارون الرمادي -
- الشعر في عصر ملوك المرابطين (مثال من ابن زيدون - المعتمد بن عباد)
- من شعراء القرن السادس الهجري (مدخل عام - الأعمى العظيمي - ابن مجبر - ابن زهر الحفيد)
- فنون الأدب الأندلسي : الموشحات

